عادل سليمان ضاهر

رواية



اسم الكتاب: اللامنتهي
تأليف: عادل سليمان ضاهر
الإخراج الداخلي: د. شيماء محمد أبوطالب
تدقيق لغوي: هدية علي
تصميم الغلاف: محمد دربالة
الطبعة الأولى: 2023
رقم الإيداع: 26626 /2022
الترقيم الدولي: 0- 9 - 978-977-86417





مزاج الكتب
للنشر والتوزيع

ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

تل مكين

يقع تل مكين على قمة جبل كان يومًا صعب الاختراق جدًا، لانحداره الشديد ولكثافة غاباته المليئة بالحيوانات المتوحشة الرابضة لاستقبال أي متطفل واستضافته استضافة أبدية لا رجعة بعدها. ولمدة طويلة من الزمن بقيت الغابة والتل عذراوين لم يدنسا.

كانت البلدة الصغيرة الوادعة التي تستلقي في سفح الجبل تنظر إلى التل برهبةٍ وإجلال فهو منزل الآلهة. وكانت تتحاشى إثارة غضب حراس غابته المقدسة، ولكن ذلك لم يكن كافيًا ليعيشوا بسلامٍ وأمان. فقد كان يُطلب منهم بين الحين والآخر تقديم قرابين وأضحيات متنوعة ما بين حيوانية وبشرية، ويُصبح الأمر في غاية السوء في أيام المجاعات والقحط. حيث يُرغم الناس على تقديم قوتهم وقوت أولادهم. ففي زمن الجوع قد يقطع الجائع جزءًا من جسده ويأكله ليستمر في الحياة. وكان ذلك يسقط على سلوك الآلهة أيضًا.

كان حراس الغابة المتوحشون يربضون على أطرافها ليس خوفًا وإنما ليتركوا فرصة لفريستهم أن تشعر بالأمان وتقترب إلى مسافة كافية تسمح لهم بالانقضاض عليها وحملها على رحلتها الأخيرة. وقد تعايش سكان القرية مع هذا الوضع المزري، ألّفوه وقبلوه، فلم يعد فقدان بقرة أو ماعز أو حتى طفل صغير أو عجوز ما يُثير الدهشة أو الحنق.

كان أهل الضحية وحدهم من يرزحون تحت ثقل الحدث. يشعرون بالحزن والأسى لمصيبتهم التي غالبًا ما ينسونها رويدًا رويدًا عائدين إلى ممارسة حياتهم الطبيعية.

كان الشيخ مسعود، كبير القرية وحكيمها يقول في محاولة لتهوين الأمر على المنكوبين، وموجهًا رسائل مضمرة للآخرين فمن المحتمل أن يكون أي منهم هو المنكوب التالي.

يجب علينا ألا نحزن ونرثي الفقيد فللأمر وجهٌ آخر أعظم وأسمى، فهذا الذي نراه خسارة وفقدانا، وننظر إليه بمفهومنا القاصر على أنه أمر سئ إنما هو شيء آخر مناقض تمامًا لنظرتنا، إنه عمل الآلهة، أحبته الآلهة فاصطفته ليذهب إلى جوارها، لقد اختار هذه الرحلة بملء إرادته لم يقل لأحد، ولكن الآلهة تعلم ما في النفوس فتختار إلى جوارها من هيَّأ نفسه للقائها. اغتبطوا للراحل فقد انتقل إلى مكان أسمى وأجمل من هذه الحياة القاسية التي نعيشها، يجب علينا ألا نستنكر الحدث بل أن يكون مطلبنا الأول والأهم هو هذه الرحلة المقدسة التي لا بُد من خوضها يومًا.

ويتفرق الشمل مكررين كلام الشيخ ومعددين مناقب الفقيد مبتعدين عن أي فكرة قد تفهم على أنها رفض أو استنكار.

وكانت تصدر بين حينٍ وآخر بعض الاعتراضات، وبعض الأسئلة المُشكِّكة يُطلقها شُبّان صغار من أقرباء المغدور تاركين للمنطق العنان في بيئة لا منطق ولا رادع فيها.

- ولكنه لم يختر الرحيل هذا الكلام غير صحيح، فقد كان بالرغم من سني عمره يحب الحياة ومتمسّك بها تمسّك الطفل بدميته الجميلة.

ـ وما أدراك أنت؟ الآلهة وحدها من تعرف وتُقرر، وقد قررت أن ساعته قد حانت.

ـ الآلهة هي التي قررت أم الذئاب؟

ـ بدأت تدخل دائرة المحظور أيها الفتى، ارضَ واقبل بما يحدث، فلا مكان لمتمرد أو متردد بيننا.

ـ ولكن لماذا تتخذ الآلهة دائمًا شكل الذئاب والحيوانات المفترسة، لماذا كل هذا الوله الوحشي للدم والقتل؟ لا بُد أن لها قلب حيوان متوحش أيضًا كما لها هذا الشكل الوحشي.

وكان الشيخ يكتم حنقه وتبرمه من هكذا مجادلات، فكلما حاول نسيان هذه الأسئلة التي بقيت تؤرقه لزمن طويل، عاد شخص ما من دون أن يدري وأعادها إلى ذاكرته حية وفتية.

ـ أنت لا تُدرك ما تقول، لا تعرف شيئًا البتة.. انتظر فالزمن كفيل بأن يُعلّمك كيف تُفكّر قبل أن تتكلم، كيف تحترم الآلهة، وستعرف يومًا طريق الصواب والرضا.

ـ تبًا للآلهة...

انزلقت الكلمة بينهم كأفعى سامة أثارت فيهم اشمئزازًا ونفورًا ورغبةً في التخلّص من الخطر.

وتهيؤوا لحرب التطهير، وفي نيتهم إرسال المتكلم الحزين الغاضب ليجتمع بمن فقد.

ـ كيف تتجرأ على الآلهة أيها الوضيع؟ صاح الحشد. يجب أن تدفع ثمن هذه الخطيئة، يجب أن تُكفّر عن هذا الذنب. ستكون حياتك ثمن تطاولك.

ولكن الشيخ يتدخل في الوقت المناسب تاركًا فترة من الزمن لكي يستوعب المتكلم الدرس القاسي، فيهدأ من سخط الآخرين وهياجهم قائلًا بأن المتكلم لم يدرِ ما يقول، وأن كلماته قد صدرت في ثورة غضب وحزن منعاه من التفكير ويُردد الحكمة التي تقول بأن الآلهة لا تؤاخذكم على ما يصدر عنكم عند الغضب أو غياب العقل. لإن الآلهة هي العقل الكلي المطلق وأنتم شذرات تائهة من هذا العقل الكلي، فإذا ما غابت عنكم فكأنكم غير موجودين، وليس عليكم حساب أو جريرة. كان الشيخ مسعود يقول هذا الكلام وهو ينظر في عيني المتكلم اللتين تفيضان بالشكر والامتنان لإخراجه من هذا الموقف الخطير ومن غضب هؤلاء الناس الذين كانوا ليضحوا من أجله بكل شيء لو كان الموضوع مختلفًا.

وفي آخر حادثة كانت الضحية شابًا يافعًا فقد أمه وفقد معها كل إحساس بالعدل والإيمان.

دخل الشيخ إلى بيته ساهمًا وكعادتها زوجته نزهة تستقبله بكم من الأسئلة عن الأحداث الجديدة.

رفع الشيخ يده بإشارة تعرفها نزهة جيدًا فلا تُكرر المحاولة ثانية في الوقت الحالي، فهي تعرف أن الشيخ في حالة من تلك الحالات التي تُصيبه فيُصبح ميَّالًا إلى العزلة والصمت.

ولقد أصبحت هذه الحالات تتكرر كثيرًا في الآونة الآخيرة.

هل أُحضر لك شيئًا؟ قالتها بشفقة وحب.

كأسًا من الشاي الثقيل والصندوق المُذهّب الصغير.

استلقى الشيخ على الأريكة محلّقًا بمخيلته مسترجعًا كل الكلام الذي قاله المتمردون كما كان يُسميهم، لا كصيغة اتهام وإنما بصيغة تفهّم واحترام وتقدير.

دخلت نزهة حاملة صينية الشاي والصندوق ووضعتهم أمام الشيخ النائم بكل روية وهدوء لكي لا توقظه. ثم تخرج وتُغلق الباب على كلمة شكرًا التي قالها الشيخ وهو يستوي في جلسته. كان يقول في نفسه: لقد كنتُ في صباي وشبابي مثل هؤلاء الشبان الذين يعترضون على

ما يحدث محاولين فهمه. وعلى الرغم من كل تلك السنوات والأحداث المتكررة، ما زالت أفكاري وهواجسي حية متجددة.

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

كم هائل من التساؤلات التي ليس لها إجابة، أو ربما كانت الإجابة واضحة جدًا، وقريبة جدًا. ولكنها لقربها الشديد منا ووضوحها لا نراها، ربما نبحث في المكان الخطأ.

أمسك الريشة بللها بالحبر وبخط عريض وجميل كتب في أعلى الصفحة:

لماذا؟

لماذا خُلقت الآلهة؟ من الذي خلقها؟ هل خلقت نفسها بنفسها؟

هل هي التي خلقت البشر أم أن البشر هم الذين خلقوها ورويدًا رويدًا نسوا أو تناسوا صنعتهم، وأصبحوا لها طائعين كمن كذّب كذبة على سبيل النكتة ثم وبمرور الزمن وتكرار الكذبة أصبحت حقيقة مؤكدة.

هل هي من بنات أفكارنا أم أننا نحن من بنات أفكارها؟

وإذا كنا من خلقها فمن خلقها إذًا؟ وإذا كنا من خلقها فمن خلقنا؟

وبعد الكثير من التساؤلات والاستفسارات والإجابات التي يحتفظ بها لنفسه، ولا يجرؤ على البوح لأحد كائنٍ من كان حتى زوجته نزهة. بل يترك هذه المهمة الصعبة لريشته وحبره وأوراقه، ثم وبخطٍ مختلف يُنهي كتابته بالعبارة التالية:

إنها كذبة كبيرة، نكتة، ولكنها نكتة تُثير السخط والاستخفاف وحتى البكاء منها وعلى من صنعها.

ثم يطوي أوراقه ويضعها بعناية في صندوقه الصغير الملئ بالنكت المشابهة، يضع الصندوق جانبًا ويُمسك قدح الشاي يشربه بهدوء وقد امتصّت الأوراق ضيقه وحزنه، ينادي زوجته

التي تدخل مبتسمة فقد عرفت أن الغمامة زالت.

.حمدًا للآلهة أنك بخير.

- شكرًا، بعض الكدر وزال.

قالها الشيخ وهو ينظر إلى المرأة الطيبة الحنون:

.وما سبب هذا الكدر المفاجئ؟ ماذا حدث في القرية؟

كانت الزوجة تعرف أن هناك شيء يهز الشيخ من أعماقه ويُعكّر صفوه، وهو يحاول دفنه

ولكنه لا يستطيع ولهذا يخرج هذا المارد يُقيّده بالكلمات ويحبسه في صندوقه المُذهّب.

.لقد وقع الاختيار هذه المرة على أم البنين.. قالها الشيخ بمرارة وأسى.

.غير معقول، ما زالت صغيرة ولديها ولد ما زال في سنين عمره الأول.

.هذا ما حدث. قالها الشيخ تفتر دمعة هاربة من بين جفنيه قبل أن يقدر على ردعها.

. هوّن عليك يا شيخ، فما حصل قد حصل، ولا رادّ لأمر الآلهة.
. بل يوجد..
لم يُكمل الشيخ كلامه فقد رأى على وجه زوجته نزهة تعابير ذكّرته بتلك الوجوه والتهديدات التي أصدرتها الحشود الغاضبة.
. ما الذي تقوله يا شيخ؟!
أجابت نزهة بهدوء شديد.
- استغفر الآلهة.
. إنه الغضب واليأس لا أعرف كيف انفلتت هذه الكلمات مني.. قال الشيخ بنفس الطريقة التي برر بها تمرد الآخرين، فنزهة تحمل إيمانًا عميقًا وطاعة عمياء لقوى القدر والآلهة.
. اذهبي إلى دار أم البنين.. خذي بعض الأشياء فلا بد أنهم في حالة يرثى لها الآن.
كانت هذه المهمة من أكثر المهام إسعادًا لنزهة فهي تُناسب طبيعتها الطيّبة الحنون.
. سترفق بنا الآلهة.. قالتها وهي تُغلق الباب.

بذرة شر

بدأت الطفلة تبكي بكاءً شديدًا، فقد شعرت أن أمها ليست على ما يُرام.
أحسّت الطفلة بألم أمها على الرغم من أن عاميها الاثنين ليسا كافيين لإعطائها معرفة كافية أو إدراكٍ منطقي لتقصّي الألم ورؤيته عند الآخرين ولكنه عالم الطفل الملئ بالعجائب، والذي ما زال عصيًا على الفهم والمعرفة الدقيقة؛ فقد كانت الطفلة وأمها ما زالتا مرتبطتين بحبل مشيمة لا مرئي يجعلهما تحس الواحدة بالأخرى.
نظرت الأم إلى الطفلة المذعورة الباكية ونادتها بصوت دافئ يقطر عذوبةً وحنانًا:

- ما بكِ يا بنيتي؟

تعالي إلى حضني وأريني موضع الألم.
هل أنتِ جائعة أم ماذا؟
هيا يا فتاتي الحبيبة تعالي إليّ.
بقيت الطفلة في مكانها تُحدّق في لا شيء وفي عينيها نظرات خوف لم ترها الأم من قبل.
تريدينني أن آتي إليك أنا! طيب.
كان هناك رعبٌ شديد يُخيّم على سماء الطفلة وهي تحدّق في بطن أمها المنتفخ.
مشت الأم بتثاقل متحاملة على الألم. وما أن رأت الطفلة أن أمها تتجه نحوها حتى عادت إلى بكائها الشديد.

- ما بكِ أيتها الطفلة الغالية؟

قالتها الأم بخوفٍ وهي تقترب من الطفلة التي جمدت في مكانها مشيرة إلى بطن أمها المنتفخ. بدأت الأم تبكي أيضًا من خوفها على ابنتها التي لا تدري ما حلّ بها فجأة ومن ألم لا يُطاق استبدّ بها وكاد أن يفقدها وعيها.

كانت وتيرة بكاء الطفلة ترتفع مع اقتراب أمها منها، وما إن وصلت إليها حتى أصبح بكاؤها لا يُطاق. حملت الأم طفلتها ثم ضمتها إلى صدرها وقبّلتها قُبلة حنون.

صرخت الطفلة عندما لامست صدر أمها صرخةً تنم عن ألم شديد ثم سكتت فجأة وكأنها غطّت في نومٍ عميق. ابتسمت الأم التي نسيت ألمها وقالت للطفلة النائمة: يا لكِ من طفلة شقية، كل هذا البكاء من أجل أن أحملك! أتغارين من أخيكِ ولم يولد بعد، أتخافين من الإهمال وتحاولين المحافظة على مكانتكِ! أنتِ مخطئة يا ابنتي. أنتِ ابنتي البكر، ابنتي الغالية، أنا أحبك وسأبقى ولو أنجبتُ مئة ولد غيركِ.

عاودة الأم نوبة ألم شديد وكادت أن تسقط أرضًا ولكنها تماسكت خوفًا على طفلها أكثر من خوفها على نفسها.

مدّت الأم يدها المرتجفة وربتت على رأس الطفلة النائمة. هل يحتاج الأمر إلى كل هذا الهياج والصراخ؟ ستصبحين فتاةً عنيدة جدًا. قالتها الأم واعتصرت ابتسامة من خلال الألم الشديد، ولكن ابتسامتها ما لبست أن جمدت تحوّلت إلى رعب، فما عادت الطفلة تُصدر أي حركة أو صوت وتوقفت تلك الحرارة التي كانت تحسُ بها الأم والتي تصدر من تنفّس الطفلة وقد تحوّلت إلى برودة أحست بها الأم عندما لامست شفتي الطفلة كتفها العاري. نظرت الأم خائفة وإذا بالفتاة شاحبة، فارقها لونها الوردي وفارقتها معه الحياة.

بدأت الأم تصرخ غير مصدقة ما تراه عيناها: استيقظي يا حبيبتي.. أرجوك.. أرجوك. وفي حالة هستيرية من الحزن والألم معًا مزّقت الأم ثيابها ونتفت خصلات شعرها الحريري الأشقر الجميل الذي كانت توليه كل عناية واهتمام.

كانت الأم تبكي بغصة ومرارة تعتملان في صدرها. تُنادي ابنتها وتندب حالتها ثم تهدأ فجأة وتُكلّم ابنتها وكأنها ما تزال على قيد الحياة.

امتلأت عينا الأم بالدموع ثم بدأت تجري على خديها كجداول تتحدر من جبلٍ شاهق الارتفاع وشديد الانحدار. وكانت الأم تضم ابنتها إلى حضنها ساهمة ما بين النوم واليقظة تهدهدها وتغني لها كما اعتادت أن تفعل كلما أرادت أن تجعل ابنتها تنام واضعة رأس الطفلة على صدرها في محاولة لامتصاص البرودة وإعادة الحياة إلى وجهها الملائكي..

أعاد صوت جرس الباب الذي كان يقرع بشدة الأم إلى الواقع. ومع ذلك بقيت مسمّرة في مكانها دون أي رغبة لفتح الباب ولكن الإصرار الشديد وصوت الجرس المزعج الذي لم تكن قد شعرت به مزعجًا هكذا من قبل أرغماها على النهوض والتوجه مترنحة باتجاه الباب وهي تشتم الطارق الثقيل الظل كائنًا من كان، ثم فتحت الباب بعصبية وعنف. ماذا تريد؟ سألت الأم حتى قبل أن ترى الطارق. وعند انفراج الباب ظهرت خلفه امرأة عجوز في عقدها السابع بوجه ممتلئ وردي اللون يفيض صحة وسكينة، وترتدي ملابس غجرية وتظهر خصلات من شعرها متسللة من تحت غطاء رأسها ما زالت محتفظة بلونها الأبنوسي الجميل. ولولا حالة الأم المزرية والوضع المأساوي الذي حلّ بها لكانت أبدت إعجابًا شديدًا بجمال هذه العجوز وجمال شعرها بشكلٍ خاص ولكانت سألتها عن سر وكيفية المحافظة عليه.

كانت العجوز تتكلم بصوتٍ مسموع إلى شخص لا مرئي يقف بجانبها وهذا ما جعل المرأة تشعر بخوفٍ إضافي.

- ماذا تريدين؟ قالت الأم؟

ردّت المرأة العجوز بهدوءٍ شديد وصوتٍ ساحر: هوّني عليكِ يا ابنتي فليست هذه نهاية الحياة.

كانت طفلة جميلة يرحمها الله، ولكنكِ ستُرزقين بعشيرة غيرها. جمدت الأم في مكانها وكأنها تمثالها الحجري ولم يكن يتحرك فيها شيء سوى ذهنها الذي يضج بالأفكار.

ما الذي تقوله هذه العجوز الغريبة؟

قالت الأم في نفسها.. فلم تكن العجوز قد خطت داخل الباب بعد ومع ذلك ها هي تُكلمها عن ابنتها، حبيبتها، عن مصيبتها ولم تكن قد شاهدتها بعد، ولم تكن الأم قد قالت كلمة عن الحدث المريع. فكيف عرفت أن ابنتها ماتت؟

ربما من استقبالها لها. أو أنها من خلال شكل الأم البائس الحزين أدركت ببداهتها ما حدث. حيث أنه معروف عن هؤلاء الغجر بداهتهم ومقدرتهم على التكهّن بالأحداث.

ولكن ما أدراها بأنها بنت وليست ولدًا، وأنها ماتت وليست مريضة فقط؟

نظرت الأم إلى العجوز بخوفٍ وحزن.

- لا تنظري إليّ هكذا ولا تستغربي أنني عرفتُ بما حدث مع ابنتك. قالت العجوز وكأنها تحاول استرجاع صورة مألوفة: نعم لقد رأيته يحدث منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا.

ازداد شحوب الأم مما سمعت، وبصوتٍ مرتجف وغير واضح سألتها: من أنتِ؟

أنا قارئة الحظ والقدر. وارتسمت شبه ابتسامة شفت عن صف من الأسنان البيضاء ما زال يحتفظ برونقه وسلامته. بل أنتِ جالبة النحس. ردت الأم وهي تبكي. أنتِ السبب في موت طفلتي أيتها الشيطانة الملعونة. حاولت الأم الاقتراب من العجوز ولكن قوة ما منعتها من الحِراك.

إنني قدرك. قالت العجوزبتفاؤل: وجئتُ كي أنصحكِ نصيحة ستُعيدكِ إلى الحياة وتُعيد إليك السعادة من جديد.

أية سعادة وأية حياة هذه التي تتكلمين عنهما! هل ستعيدين إليّ ابنتي من بين يدي الموت؟

قالت العجوز: لا، لا يقدر أحد على إعادة من يموت إلى الحياة ولكن نصيحتي لمنع تكرار ما حدث وموت أولادك الآخرين.

ألم أقل لك بأنك سترزقين العديد من الأولاد؟

إن هدوء وجمال تلك العجوز بالرغم من سنين عمرها وضعا بعض الهدوء والأمل في نفس الأم فكلمتها قائلة: طيب ما المطلوب مني عمله، وإذا كنتِ مخطئة فكيف أكفّر عن أخطائي؟

ـ اسمعي يا ابنتي إن ما سأقوله لكِ سيكون صعبًا وقاسيًا جدًا ولكنه السبيل الوحيد لخلاصكِ من اللعنة وتطهيركِ من جديد.

ـ سأفعل ما بوسعي ولكن قولي أولًا ما يجب عليّ فعله؟

ـ أولًا والأهم هو أنه يجب عليكِ أن تتخلصي من الجنين. صدرت هذه الكلمات عن العجوزة ببرودة ولا مبالاة.

صعقت الأم من كلام العجوز الذي وصلها كسيوفٍ من لهبٍ ورصاص يخترق القلب فبدأت بالصراخ مانعة العجوز من إكمال كلامها.

ألا يكفيك ما فعلتِ؟

لقد قتلتِ ابنتي، وها أنتِ تريدين قتل طفلي حتى قبل أن يرى الحياة؟
أي حل شيطاني هذا، وأية شيطانة أنتِ؟
وضعت الأم يديها على بطنها في محاولة لحماية الجنين..
إنه طفلي الحبيب، هذا ما تبقى لي، بذرة خيرة وخلق جميل من خلق الله.
بل هو بذرة شر ومن خلق الشيطان.. ردت العجوز بصلابة وحسم: وهذا الشيطان الذي تحملين سيمتص قواكِ أولًا وستلدينه في ألمٍ عظيم لا مثيل له.
وستلدين أطفالًا آخرين وسوف تدفنينهم الواحد تلو الآخر وهو ينمو ويُصبح أكثر صحة في كل مرة تفقدين فيها طفلًا. سيمرعليكِ الزمن ثقيلًا وستجدين نفسك وحيدةً أمامه، ستشهرين أسلحتكِ لمقاومته ولكن سيكون قد فات الآوان، ولتنتقمي من نفسكِ سوف تقتلين نفسكِ.
صرخت المرأة وقد تحول شكلها إلى منظرٍ مرعب ومخيف ومثير للشفقة بنفس الوقت. لا، لا لن يحدث شيء مما تقولين، إنك عجوز خرفة شيطانية تهذي. ثم اقتربت منها في محاولة لصفعها، ولكن يدها صفعت الهواء فلقد اختفت العجوز نهائيًا دون أي أثر يُذكر إلا ما علق في ذاكرة الأم المنكوبة.
جلست المرأة في حالة ذهول كُلّي تُكلّم نفسها بصوتٍ معذّب مسموع. وقد مرّت لحظات ثِقال قبل أن يُفتح الباب ثانية. التفتت الأم بخوف ظانة أن العجوز قد عادت.
جمدت الابتسامة على وجه الرجل الداخل إلى البيت حاملًا لعبة صغيرة في يده، لقد أذهله رؤية زوجته في هذه الحالة المزرية. رمى اللعبة على الأرض وهرع إليها متسائلًا:
ـ ما بك، ما الذي حصل؟ من فعل بك هكذا؟ هل أنتِ مريضة؟

نظرت إليه الزوجة بعينين ضائعتين لا يحملان أي معنى ولم تتكلم. أمسكها الرجل من كتفيها وهزّها بعنفٍ صارخًا: ما بك، لماذا لا تجيبي؟

وبحركة آلية مدّت الزوجة يدها مشيرة إلى الطفلة الميتة.

هرع الزوج إلى الطفلة دون أن يُدرك ما تعنيه هذه الإشارة ظانًا أن الفتاة مريضة أو نائمة ولكن في منظرها شيء أثار الريبة في نفسه، مدّ يده إليها ليجدها قد فارقت الحياة. فأطلق صرخة مليئة بالألم والحزن والحسرة.

دخل الجيران على صوت صراخ الأب وصاروا يحاولون تهدئته، والزوجة جالسة بذهول كُلّي لا ترى أو تسمع أي شيء.

وفجأة وبين الجموع ظهرت العجوز، نظرت إلى المرأة وأشارت إليها باشارة قد فهمتها الزوجة بأنها تعني التخلص من الجنين. صرخت الزوجة والنساء ملتفات حولها يسألنها كيف حدث ذلك؟

ـ لقد أخذتها العجوز الشمطاء. أجابت المرأة وهي تنظر إلى العجوز الواقفة أمامها.

ـ أي عجوز؟ سألت أحد النسوة.

ـ هل كانت مريضة أم أن ما حدث حدث فجأة؟

ـ لقد حاولت أن تأخذ ابني أيضًا. وبدأت تضع يديها على بطنها لتمنع عينا العجوز من رؤيته.

****

دُفنت الطفلة ودفنت معها الأم المرأة العجوز وكلامها، ممنية النفس أن الله سيعوضها عما فقدت.

كانت الأيام تمر بطيئة على الزوجين الذين كانا يعزيان نفسيهما بأن الطفل القادم هو الذي سيزيح غمامة الحزن المخيّم فوق البيت جالبًا شمس الفرح والسرور إليه ثانية.

اقترب موعد ولادة الطفل، وكان قد مضى على وفاة الطفلة أربعة أشهر، لم تتفوه الزوجة فيها بكلمة عن العجوز حتى أنها ظنّت أن كل ما حدث كان ضربًا من الخيال المعذب والتهيؤات نتيجة ألم فقدان طفلتها كما قيل لها في ذلك اليوم المشؤوم.

كانت الزوجة وزوجها في المنزل عندما بدأ الألم يعتصر بطن الزوجة، وكأن سكينًا حادة تعمل فيه طعنًا وتمزيقًا. حاولت الزوجة في البداية كبت الأمر، ولكن الألم فاق حد الاحتمال وأجبرها على إطلاق صرخة ألمٍ مُبرح، ثم سقطت مغشيًا عليها.

هبّ الزوج مذعورًا، حملها بين ذراعيه القويتين وركض بها حافي القدمين إلى المستشفى القريب. أُدخلت الزوجة مباشرة إلى غرفة العمليات.

ـ قال الطبيب غاضبًا ولائمًا الزوج: لماذا تأخرتم عليها؟ إن حالتها خطيرة وقد تموت هي وجنينها.

ـ لقد تعرّضت المسكينة إلى كثير من الضغوط في الآونة الأخيرة. قال الزوج شاعرًا بالخجل وهاربًا من نظرات الطبيب اللائمة. ثم أردف بكلمات متوسلة..

ـ حياتها أولًا.

ـ الاتكال على الله. قالها الطبيب وهو يتجه إلى غرفة الولادة.

ولدت الزوجة في ألم عظيم فاق بأضعاف مضاعفة آلام ولادة طفلتها المرحومة بالرغم من أنها كانت ولادتها الأولى.

كانت مستلقية على السرير تنظر إلى المهد الصغير الذي وُضع فيه وليدها متمنية أن يأتي شخص ما ويُحضره لها لتراه وتُقبّله، لقد تحققت أمنيتها وفُتح الباب فتهيأت الأم لتقديم طلبها، ولكنها توقفت إذ ظهرت العجوز من وراء الباب.

ـ هذه أنت! قالتها الأم بخوف.

ـ نعم أنا. هل اعتقدتِ أنكِ لن تريني ثانيةً وأن الأسوء قد انتهى! إذًا أنتِ مخطئة جدًا يا عزيزتي هذه هي البداية، ويجب العمل بسرعة. ثم غيّرت نبرة حديثها وقالت باهتمام يحمل شيئًا من التهكّم: كيف كانت الولادة؟

عسيرة ومؤلمة جدًا؟

ـ بل سهلة جدًا. أجابتها الأم.

ـ إذًا أنتِ تكذبين، لقد رافقتكِ من المنزل وكنتُ بجواركِ وأنتِ تصارعين الموت من أجل هذا الشيطان.

ـ إنه ليس شيطانًا، أنتِ الشيطانة المشؤومة. بدأت الأم تبكي وتصرخ بصوتٍ عالٍ طالبة النجدة. اقتربت العجوز من سرير الطفل في محاولة لخنقه. ولكنها لم تملك الوقت الكافي لفعل ذلك إذ دخل الزوج والممرضات على صوت صراخ الأم.

كان الزوج يُصلّي ويدعو الله أن تنتهي الأمور على خير ما يرام فهو لا يُريد فقد أي منهما.

نظر الجميع بالاتجاه الذي تُشير إليه المرأة..

ـ إنها هنا.

ـ عما تتكلمين؟ لا أحد هنا.

ـ العجوز التي أخذت الطفلة، عادت ثانية لتأخذ الطفل أيضًا، أرجوكم لا تدعوها تفعل ذلك.

خرجت العجوز بهدوء من بين الجموع دون أن يراها أحد غير الأم وهي تقول:

ـ إما أنتِ أو هو، يجب أن تختاري.

ـ أنا، أنا، أنا كررت الأم بإلحاح ثم عادت إلى غيبوبتها ثانيةً.

إنها تهيؤات ورؤى ناتجة عن الألم والإرهاق.. أعطيها إبرة مهدئة. قال الطبيب للممرضة.

وقفت العجوز بباب الغرفة تنظر إلى المرأة ثم غادرت هازة رأسها ومؤدية حركة تدل على غباء المرأة .

مكين

كان نهارًا دافئًا من أيام الخريف الأخيرة عندما استيقظ الشيخ مسعود على صوت نزهة تنادي بإلحاح: استيقظ يا شيخ، استيقظ.

استوى الشيخ في جلسته بسرعة فقد كان يحلم حلمًا مزعجًا، مسح لحيته بيده..

ـ ما بكِ يا امرأة؟

ـ لديك ضيف ينتظرك.

ـ من هو؟ هل أكرمتِه؟

إنه رجلٌ غريب وهو يُصر على عدم الدخول حتى تكون قد استقظت.

ـ أدخليه إذًا لقد استيقظت.

ـ حاضر. تحركت للخروج.

اذهبي أنتِ وهيئي الطعام، أنا سأدعوه للدخول.

خرج الشيخ مهللًا ومُرحّبًا بالضيف. اقترب الغريب فظهرت قامته المديدة وصدره العريض وعضلاته المفتولة ووجهه الجميل.

قال الشيخ محدثًا نفسه وهو ينظر إلى الضيف نظرة إعجاب: قالت الآلهة بأنها ستبعث إليّ أحد بنيها لأمرٍ هام، وأظنه قد وصل.

ـ تفضّل. قالها الشيخ بودّ.

ـ عذرًا يا شيخ.. ولكن حركة من الشيخ منعته من إكمال كلامه.

دعنا نجلس أولًا نتناول شيئًا من الطعام وبعدها نتكلم، يجب إكرام الضيف أولًا.

ـ هذا كرم منك أيها الشيخ.

لقد كان الغريب في أمسّ الحاجة إلى الطعام فقد مرّت عليه أيام خمس لم يدخل فمه خلالها شيء سوى الماء وبعض الثمار البرية. لقد كان يرتجف من الجوع ولكن خجله كان ليمنعه من طلب الطعام. وحسنًا ما فعله الشيخ.

لقد أحس الشيخ بذلك الخجل، ولقد أوصته الآلهة أيضًا بأن يُكرم رسولها.

وضعت نزهة الطعام ولاحظت وهي تخرج حركة من يد الشيخ فهمتها على الفور..

ـ تفضل فلا بد أنك جائع. قالها الشيخ وهو يمد يده إلى الطعام لتشجيع الغريب.

ـ شكرًا لك، نعم فهذا يومي الخامس بدون طعام.

قال الشيخ في نفسه: صدقت الآلهة، لندعه يأكل الآن، ثم نستمع لقصته فلا بد أن في جعبته الكثيرمن الأحاديث المثيرة. أين أنتِ أيتها المرأة؟

طرقت نزهة الباب ثم فتحته قليلًا ونادت الشيخ.

ـ ماذا هناك؟ قال الشيخ باستغراب.

مسألة مستعجلة تستدعي حضورك فورًا.

ـ حسنًا ها أنا قادم.

التفت الشيخ إلى الغريب وقال له: اعتبر نفسك في منزلك، أتمنى أن تُكمل طعامك وإذا ما احتجت لشيء فلا تتردّد في طلبه.

رد الغريب بخجل: سأنتظرك، ويمكنك اعتباري وكأني غير موجود.

- لا لن أقبل بذلك بل إنك موجود واعتبر نفسك من أهل البيت وإلا فلن أذهب.

أرغمه خجله ولطف الشيخ على الانصياع للأمر. هذا هو الريف وسكانه يحترمون الضيف ويكرمونه حتى قبل أن يعرفوا من يكون أو ماذا يريد.

وخرجت من بين شفتيه كلمة لم يسمعها الشيخ ولكنه قد فهمها من حركة شفتيه: حسنًا.

لم يسأل الشيخ زوجته عن المسألة فلم يكن هناك من شيء سوى اتفاق ضمني بينهم إذا ما جاءهم غريب واستشعر فيه الشيخ خجلًا أو ترددًا فيقوم بتلك الإشارة تاركًا الغريب يتناول طعامه بحرية دون أي شعور بالمراقبة أو الخجل.

أنهى الغريب طعامه، ثم استند إلى الوسادة منتظرًا دخول الشيخ ولكن ما إن لامس جسمه الوسادة حتى غطّ في نومٍ عميق.

خمّن الشيخ أن الغريب نائم فهو لم يعد يسمع أي حركة، وهذا ما حصل بالفعل. وقد قرّر تركه نائمًا حتى يستيقظ لوحده.

تُرى ما وراءك أيها الغريب؟ قال الشيخ وهو ينظر باتجاه التل.

 استيقظ الغريب في صباح اليوم التالي وكان يغمره الدفء من غطائه المصنوع من صوف الغنم الذي وضعه الشيخ عليه دون أن يحس به.

دخل الشيخ مبتسمًا وقال: يبدو أنك لم تنم منذ خمسة أيام أيضًا.

ـ هذا صحيح، أنا من تل البلابل، أظنك سمعت بها.

ـ نعم سمعت بها، ولكن لما تركتها وعلى هذه الحال السيئة.

ـ تركتها مكرها هاربًا.

ـ مم؟ قال الشيخ.

ـ من الموت.

ـ قال الشيخ مندهشًا من الموت، هل هناك مفر من الموت؟! إني متلهف لسماع قصتك.

ـ أنت تدري بأن عيد الحصاد قد حل، وقد حان تقديم الأضاحي، ولأن المحصول كان وفيرًا هذا العام، لم تقبل الآلهة بأضحية حيوانية كما هي العادة، بل طالبت بأضحية بشرية هذه المرة.

يجب أن تقدموا أضحية مميزة وكبيرة، أن تعطوا على قدر ما أعطيناكم. قالت الآلهة على لسان كهنتها، وإلا فالويل لكم من سخطنا وغضبنا وسترونها مجاعة وقحط وجفاف.

كان الناس مسرورة بالغلال الوفيرة التي جاوزت المعتاد وتوجسوا خوفًا من التهديدات التي أصدرتها الآلهة، وهكذا اجتمع أولي الأمر وأصحاب القرار وقرروا أن الأضحية يجب أن تكون أجمل شاب في القرية وأكثرهم كمالًا، ومن كان هذا الشاب؟

أنت بالطبع. قال الشيخ وهو يتمعّن في ملامحه الجميلة.

نعم أنا، أنا الذي يكره الآلهة ولا يُصدق ما يتفوّه به هؤلاء السفلة الذين يدعون خدمتها فينطقونها بما يريدون ويطلبون ما يشاؤون دون أي رفض من الناس أو تذمر.

كانت العادة أن تكون الأضحية بعض الغلال بالإضافة إلى حيوان ضخم يفي الآلهة حقها من حيث حبها للدماء، ويفي خدمتها من حيث حبهم لكروشهم التي ستبتلع الحيوان.

لقد عرف هؤلاء الأوغاد بما أُفكر به، ونيتي في توعية الناس ودعوتهم للتمرد على هذا الوضع المزري والمهين للإنسان وكرامته.

سأل الشيخ: كيف عرفوا بذلك؟ هل جهرت بهذا علنيًا؟
كان أعز أصدقاء الطفولة والشباب وهو ابن لا شرعي لأحد هؤلاء الكهنة، كانت أمه امرأة جميلة جدًا وقد قضت الآلهة بأن تخدم المرأة لديهم لمدة سنتين، رفضت المرأة، ولكن زوجها سحبها من شعرها ورماها تحت أقدامهم. قدّم الطاعة ثم عاد إلى منزله ليجدوه ميتًا في صباح اليوم التالي. عادت المرأة إلى بيتها بعد أقل من شهر، وبدأت تقص حكاية اغتصابها من قبل الكاهن الكبير، وكيف كان الآخرون يتلذذون بصوت صرخاتها واستغاثاتها. لم يستمع إليها أو يصدقها أحد من الناس، فلقد صدرت فتوى الآلهة بأنها امرأة ممسوسة ولهذا استغنت الآلهة عن خدمتها سريعًا وطردتها خارج المعبد.
وكان بطنها الذي يكبر ثم ولادة طفلها الذي يشبه ذلك الكاهن شاهدًا على صِدق حكايتها، ولكن الناس كانوا قد نسوا الحكاية أو تناسوها خوفًا واستسلامًا.
كبر هذا الولد معنا، وقد كنتُ أحس بعاطفة كبيرة اتجاه المرأة المسكينة، كنتُ أستمع لكلامها المشوب بالألم واليأس وهي تسرد حكايتها، وأنا متأكد جدًا من أنها تقول الحقيقة، وكان الولد العاق يضحك من كلامها ومن استماعي لها.
كان يقول مستهزئًا: ماذا تفعل؟ ألم تمل من هذه الحكاية المضحكة! إنها لا تعرف ماذا تقول.
كانت أمه تنظر إليه وعيناها مليئتان بالدموع، وكثيرًا ما قالت لي إنه بذرة شر فكيف سيصدر منه الخير لي أو لغيري! أنصحك يا ولدي بالابتعاد عنه والحذر منه.

لم أكن أستمع لها اعتقادًا مني أنه يذكرها بما حصل لها ولهذا فهي تكرهه. ولكم كنت مخطئًا في ذلك الاعتقاد.

كنت أطلعه على ما يجول في فكري من تساؤلات ونوايا في التخلص من تلك الآلهة الظالمة وأنا أُفتّش عن طريقة وزمن مناسبين، وكم كنتُ مخطئًا في الإفصاح عن ذلك له، فقد نقله إلى أبيه الذي كان يستدعيه بين حين وآخر للخدمة ظاهريًا ولكن السبب الأساسي هو نقل أحوال الناس وكلامهم والأهم من ذلك كله هو إعلامه عن حال الناس واحتمال وجود بوادر سخطٍ أو تمرد، وكان هذا يُقدّم تقاريره كاملة ويُحذّرهم مني.

كان الكهنة في البداية غير مبالين بما يصلهم من كلام عن أفكاري وسلوكي ونواياي، ولكنهم وقد أحسوا خطورة الحالة ووضعوا خططهم الخبيثة للتخلص مني.

وهكذا قرروا ومن ورائهم آلهتهم التي ينطقونها بما يريدون بأن الضحية ستكون بشرًا هذا الموسم، وليس أي بشر بل الأكفأ والأجمل وكانوا يقصدونني أنا مكين.

وكانوا قد بدؤوا يهيؤون لفكرتهم الماكرة بطريقة ذكية، فقد كانوا يشيدون بي في كل مناسبة، بجمالي وكفاءتي.

مكين أفضل شاب في القرية وأجملهم.. مكين.. مكين. كانوا يقولون بأن الآلهة كانت ستختارني لو أرادت أضحية بشرية ولكنها أي الآلهة ترفق بنا وتقبل الفدية التي نقدمها من نبات وحيوان.

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ قال الشيخ متشوقًا لمعرفة القصة.

جاءت إليّ المرأة بهيئة تدل على الرعب والأسى وقالت بهياج: حذرتك منه كثيرًا، إنهم يدبّرون مكيدة لك وفيها ستكون نهايتك، يجب أن تترك القرية بأسرعِ ما يُمكن. اهرب الآن. لقد سمعت هذا العاق يُكلّم أحد أصدقائه بأن الفرصة أتت والظروف مواتية الآن للخلاص منك. هيا اذهب الآن وبأقصى سرعة.

أجبتُ ضاحكًا: سأهيئ أغراضي أولًا.

وبجدية وحزم قالت: أنت لا تُدرك خطورة الموضوع. إنه أخطر مما تتصور. سيضحون بك، سيقتلونك لأنك بدأت تُثير الإزعاجات والمخاوف، لقد بدأت تُهدد مراكزهم.

أجبتها دون أخذ كلامها على محمل الجد: سآخذك معي ما رأيك؟

ـ كفاك تهريجًا أيها الفتى، هيا غادر المكان الآن، الآن. لماذا تضيع الوقت والفرصة الآن مناسبة؟ إنهم يعملون بكل جدية وسرعة، أظن أنهم في طريقهم إلى هنا الآن.

لم تُكمل المرأة كلامها حتى احتلّ المكان ضجة كبيرة، كانت أصوات حماسية تردد تراتيل وتلاوات. وكنتُ أسمع صوت صديقي واضحًا يعلو جميع الأصوات محمسًا ومحرّضًا. خرجت وإذا بالحشود تتواكب بوتيرة كبيرة. عندما رآني صديقي أشار لهم بالهدوء وبدل نبرة صوته قدر المستطاع مُخفيًا الهياج والحماس. وقال لي بودّ:

ـ جئنا لنأخذك معنا، فاليوم كما تعرف هو يوم الأضاحي.

ـ وتعرف أنني لا أحب هذه الطقوس ولستُ مقتنعًا بها ولا أشارك فيها.

ـ ولكنها مختلفة كثيرًا هذه المرة. قال وقد لمعت عيناه وظهرت ابتسامة خبيثة على ثغره.

ـ ما هو وجه الاختلاف؟ سألته بتهكّم.. دماء وذبح وأرواح تُزهق. هل هناك من متغير؟

ـ ستعرف عندما تصل. كان يتعرق وهو يحاول السيطرة على صوته وسلوكه.

ـ لن أذهب. قلتها وأنا أُراقب تغيرات سحنته التي انقلبت سوداء.

ـ بل ستذهب كانت ردة فعل سريعة أدرك بعدها خطأه، فهدأ من حدته وقال: إني متحمس كثيرًا جدًا. تعرف أني أحبك، أنت صديقي ونتشارك الكثير من الأعمال والأسرار.

اقترب قليلًا فشاهد أمه وأدرك على الفور بأن الخطة قد فضحت. فانفجر في وجها قائلًا:

- ماذا تفعلين هنا أيتها العاهرة؟

ثم التفت إليّ وقال: كيف تدع هذه المجنونة تأتي إليك أو تستمع إليها؟

بدأت الأم تصرخ بأعلى صوتها غاضبة:هذه العاهرة هي أمك وأنت ابن فاحشة واغتصاب، ابن الخطيئة التي باركتها آلهتكم التافهة، إلى الجحيم أنت وآلهتك.

رفع ده ليضربها ولكني أمسكت يده فإذا بالآخرين يهجمون عليّ وهو يحرضهم ويصرخ بأعلى صوته: ألقوا القبض عليه، لا تدعوه يهرب، الآلهة تأمرنا.

قالت المرأة بصوتٍ مرتجف رقيق: هيا يا ولدي اذهب أرجوك.

قلتُ لها: لن أتركك هنا فلا بد أنهم سيؤذونكِ.

- لا تخف علي فلا يوجد أذية أكبر مما فعلوه في السابق، ثم إنهم يريدونك أنت. فأنت الخطر القادم، هيا قبل أن يأتي المزيد من الشياطين وعندها سيكون قد فات الأوان وزهقت روحك بلا مقابل.

تغيّرت نظرتها فجأة وصرخت محذرة: انتبه..

كان واحد منهم يقترب مني بهدوء ممسكًا حبلًا بيديه حتى وصل إلى مسافة قريبة ورائي في محاولة لوضع الحبل في عنقي، كانت الصرخة، وكان مني أن ألتفت إليه، أحس بالخوف والاضطراب فأمسكتُه ووضعتُ الحبل حول عنقه، طرحته أرضًا واضعًا رجلي فوق ظهره والحبل في يدي، كل هذا وما زلتُ ممسكًا بصديقي. كان المربوط يصيح من الألم، وكان صديقي يقول لي أن أتركه وشأنه.

لست في موضع يؤهلك لتطلب أو تأمر. أتريد التضحية بي يا صديقي؟

بحقدٍ أسود ولؤم قال: لستُ صديقك ولم أكن كذلك يومًا، أنت تشتم آلهتنا وقديسينا وتتجرأعلى كهنتنا، ستدفع ثمن كل هذا اليوم، سيكون موتك عاقبة جحودك وكفرك.

اقترب محاولًا الغدر بي ولكنني كنتُ الأسرع ثانيةً أمسكتُ يده وربطتها بالحبل وسحبتها بسرعة وقوة حتى سمعتُ صوت تحطم عظام ساعده ممزوجًا بصرخة ألم شديد منه. يرافقها صيحة أخرى صدرت من المربوط الذي قارب الاختناق فقد كان الحبل قد أطبق على عنقه محاولًا قتله.

بدأتُ أسمع أصوات قادمة والمرأة تبكي وتصرخ فيّ: اذهب يا ولدي أرجوك، لا أريد أن أفقدك. وكان كلامها مشوبًا ببكاء شديد.

قالت: إذا لم ترد الذهاب من أجلك أنت فاذهب من أجلي أنا، فأنا أشعر بك كأنك ولدي وكأنك خرجت من أحشائي، أنت الوحيد الذي بقي لي.

تركت الحبل من يدي وخرجتُ مسرعًا وكل منهم يحاول الغدر بي، ولكن أحدًا لم يجرؤ على مواجهتي لعلمهم اليقيني بأنه سيدحر، فالكل يعلم بأني قادر على التغلب على أربعة منهمم مجتمعين. وهذا ما ضمن لي الحياة.

كنتُ أركض بأقصى سرعة والحشود تتزايد من ورائي هائجة صارخة. فلقد أصبح لتلك الثعالب الماكرة شجاعة ضباع انتظمت في قطيع.
توغلتُ عميقًا في الغابة، واختبأتُ في شجيراتها الكثيفة منتظرًا حلول الظلام. وعندها لن يتجرأ أحد على دخولها.
ـ ألم يتبعوك إلى الغابة؟ سأل الشيخ.
ـ نعم تبعوني مجتمعين ولقد مر بعضهم بجانبي دون أن يروني، فقد سيطر عليهم رهاب الغابة وخوفهم مني ولقد سمعتهم يقولون وهم عائدون: سوف تغضب الآلهة والكهنة على ضياع أضحيتهم وقال آخرون: بما أن الآلهة قادرة على كل شيء فلتحضره هي.
هل تتجرأ على قول هذا الكلام علانية؟ قال آخر.
لا، لا أريد إغضاب الكهنة، إن وجودنا هنا خطأ كبير وخطر أكبر، إذ أن غضبه يثير في مخاوف أكبر من غضب الآلهة. نعم، نعم أكد الباقون، دعونا نعود قبل أن يقرر أن يختارنا أضحية له، دعونا نقول بأن الغابة افترسته.
إني أحبه وأحزن على فراقه، قالها شخص كان يتودد لي دائمًا.
ضحك الآخرون: حزين جدًا على فراقه أم على فراره! فلو بقي لكان الآن على أبواب العالم الآخر. وربما كان قد اجتازه.
ذلك شيء مختلف، عندها سيكون القربان المقدّس للآلهة المقدسة.
وهكذا بدأتُ أمشي في الغابة تلاحقني عيون بنيها الشرفاء إذا ما قورنوا بهؤلاء الناس الغادرين، وقد تركتُ قميصي هناك لكي يظنوا أني مت، لم أدخل أي من القرى المجاورة، بل كنت ألتف حولها فلا بد أنهم سيبحثون عني إذا ما عرفوا بنجاتي من الغابة، وهكذا حتى وصلتُ هنا، وسألت عن شيخ القرية، فدلّني الناس عليك بعدما ملؤوا أذني بالثناء والمديح لك.

ـ وماذا أقدر على فعله من أجلك؟ سأل الشيخ باهتمام.
ـ الحماية وأن تدعني أبقى وأعيش هنا.
ـ لا أقدر، هذا فوق استطاعتي. قالها الشيخ بحزن وغم..
ـ لمَ يا شيخ؟ قالها الغريب باندهاش يشوبه اليأس.
ـ لأن سكان هذه القرية لا يختلفون كثيرًا عن أبناء قريتك، ويكفيهم أن يعرفوا بقصتك حتى يمسكوا بك ويجرونك إلى قريتك مقيدًا، هذا إذا لم يضحوا بك هنا ويبعثون البشارة إلى أعدائك الكهنة.
إذًا لا أمل لي هنا.. قال مكين بحزنٍ ويأس.
ـ امكث في بيتي لبعض الوقت وسنفكر علنا نجد حلًا ما.
ـ لا يا شيخ، لا أريد أن أُعرّضك لأية مساءلة أو ملامة.
ـ لا تخف فلن يفكر أحد بالاقتراب مني أو إصابتي بأي سوء، خوفي عليك أنت.
ـ إذًا سوف أرحل الآن فلا بد أن أجد مكانًا ما، وشكرًا على ما فعلته من أجلي.
ـ قال الشيخ رافضًا: لن تذهب إلى أي مكان بل ستبقى هنا، ستفعل كما قلتُ لك، ولكن هناك شرط واحد.
ما هو هذا الشرط؟
ألا تُحدّث أحد بقصتك حتى إلى زوجتي، وقلل الكلام قدر المستطاع، وأما إذا سألت أنا فسأقول بأنك قريب بعيد لي، وأني أرسلت في طلبك لتساعدني في أعمال الزراعة ورعاية القطيع. اتفقنا؟
- أمرك يا شيخ.

الولادة

يجب أن ترتاح قليلًا. قالت الزوجة بأسى، ما حدث قد حدث، لن تستطيع إعادتها، قدر محتوم. الموت حق وأنت رجل مؤمن.

ـ يا للمسكينة! ما زالت صغيرة. قلتُ لها أن تنتظر قليلًا، دعي الفتاة تكبر، ولكنها أصرت على أن تحضر للفتاة أخًا، يكبران معًا ويلعبان معًا ولكن فرحتها لم تكتمل فما أن خطت نصف الطريق إلى هدفها حتى فارقتها طفلتها المسكينة. ولم تكن تلك نهاية مأساتها بل لقد قضى عليها ذلك ال... وغص بالدموع فلم يقدر على إنهاء جملته.

ـ وكّل الله يا رجل، إنه طفل صغير، فلماذا تُلقي عليه حملًا ثقيلًا كهذا، يعجز الكبار عن حمله؟ هذا قدرها.

ـ لقد عانت المسكينة كثيرًا في الحمل، وكانت الولادة تتويجًا لذلك الألم والمعاناة، وضعت طفلها متمسكة بوجوده وحياته أكثر من حرصها على حياتها، لقد أضعفها بطريقة غريبة، على نقيض ما حصل مع طفلتها الأولى. لقد أصرت بأن ترضعه رغم النصائح الكثيرة وتحذيرات الأطباء بألا تفعل ذلك وخاصةً في ذلك الوقت، كانت تتلوى من الألم كلما أرضعته، كان طفلًا غريبًا جدًا، كان حين يرضع ثدييها يمتصهما حتى ليصبحا كقارورتين أفرغ منهما الهواء، إضافة إلى الاحمرار والتقرّح الشديدين الذين يظهران بمجرد ملامسة فمه لهما.

ـ رحمها الله كانت أمًا عطوف، كمثل أغلب النساء.

ـ لم يوافق الأطباء على إخراجها من المستشفى، فلم تكن حالتها مستقرة. وإن كانت تتحسن أحيانًا حتى ليفكروا في إخراجها، ولكنها وفجأة تعود للمرض من جديد.

مضى أسبوعان على هذه الحالة المتذبذبة ما بين المرض والتعافي في اليوم الرابع عشر دخلت لأجدها متعافية موردة الخدين، تؤج بهجة وجمالًا، فرحت كثيرًا، ثم طلبت مني أن أساعدها في تمشيط شعرها. قالت لي بإنها يجب أن تذهب في رحلة بعيدة ولا تريد أن تتأخر. كانت تتكلم بهدوء شديد.

قالت لي بجدية وحزم: أصرت العجوز على اصطحاب أحدنا.

أجبتها: العجوز! أية عجوز؟ إنها تهيؤات وكوابيس.

ـ أكملت مقاطعةً وكأنها لم تسمع ما قلتُ: إنها تطالب بالطفل من قبل ولادته، لا تريده أن يحيا ولكنها قبلت أخيرًا بالمقايضة، أنا بدلًا منه.

ـ صرختُ فيها: ما هذا الهراء الذي تتفوهين به؟ لم أفهم ما تريدين سأخرجك من هنا بسرعة أعتقد أن المكان أثّر على أعصابك، هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟ هل تشعرين بألم؟

ـ على العكس إني في تمام الصحة، لقد اخترت الذهاب، وهناك سأجتمع بابنتي الغالية بالطبع سأفتقدكم، سأشتاق لكم كثيرًا، ولكن لا مفر من الذهاب.

كنت أكلم نفسي مفكرًا: ما هذا المرض الغريب يجب أن أستدعي الطبيب.. هممت بالذهاب ولكنها أمسكتني من يدي راجيةً:

ـ لا تذهب أرجوك، لن يستطع الطبيب فعل أي شيء، فكل شيء تقرر، نظرت حولها إلى الطفل: أعطني الطفل فأنا أريد أن أودعه.

ـ سأذهب لإحضار الطبيب.

ـ أرجوك أعطني الطفل.
ـ حسن سأعطيك إياه ولكن بشرط ألا ترضعيه، لقد سمعتِ ما قاله الأطباء.
ـ أعطني إياه.
حملتُ الطفل بين يديّ.
نظر الطبيب بارتياح وقال: إنها بخير انظر إليها. خطا نحوها موبخًا: يجب عليك أن تتبعي النصائح، إذا أردتِ الخروج من هنا بسرعة، بعد فترة قصيرة ستسترجعين صحتك وعندها تعودين لإرضاعه مع أني لا أحبّذ ولا أنصحكِ بفعل ذلك.
كان الطبيب ينظر إلى الثدي الذابل، أصيب بالذعر، خطا بسرعة إلى السرير، خطف الطفل
الذي كان يكلله السرور الشديد من بين يديها. كنتُ أنظر إليها مذهولًا وقد جعلتها حركة اختطاف الطفل من حضنها تميل رويدًا رويدًا حتى سقطت على جانب السرير.
اندفعت إليها بسرعة، أردت أن أُكلّمها ولكن لساني كان قد تحجّر في فمي، احتضنتها وشددتها إلى صدري وأنا أبكيها وأبكي نفسي.
وضع الطبيب الطفل في سريره ثم اقترب من المرأة التي فارقت الحياة.
همس الطبيب بصوت يكاد يكون مسموعًا: لم أرَ في حياتي صورة لشخص ميت بهذا البهاء والجمال!
نظرتُ إلى الطفل اللاهي في سريره نظرة كره وكم تمنيتُ ألا يكون قد وُلد.

الاستعداد

سُرّت زوجة الشيخ لفكرة بقاء الغريب معهم وقد عقدت العزم على اعتباره الولد الذي لم تلده، وبدأت تعد الخطط لتزويجه لضمان بقائه معهم، لم تسأله عن سبب تركه بلده وأهله والقدوم إلى قريتهم سوى مرة واحدة أجابها الشيخ بدلًا عنه قائلًا بأن حادثًا مؤلمًا قد حدث لعائلته وقد ماتوا جميعًا، فترك القرية لأن وجوده فيها يُبقي الجرح مفتوحًا والكارثة حية متجددة.
لم تُعِد المرأة سؤالها ثانية خوفًا أن يُثير السؤال في نفس مكين الحزن، والحنين لقريته والتوق للعودة إليها، وكانت قد تعوّدت على وجوده وكأنه في الحقيقة ولدها.

لم يكن الشيخ وزوجته فقط من تعود على الغريب وألف صحبته ووجوده.
لقد أحب جميع سكان القرية مكين، وخاصة الفتيات فقد كان شكله الجميل وبناؤه الصلب، يثير الإعجاب ويجعل قلوبهن ترقص طربًا وعشقًا كلما صادفنه، وقد كن يتقصدن المرور بجانب المكان الذي يرعى فيه القطيع ليكحلن عيونهن بشكله الرائع والقوام البهي، ويختلقن شتى الأعذار لتجاذب أطراف الحديث معه. كأن يسألنه عن نزهة أو عن أحد سكان القرية ثم لا ينتظرن جوابًا فكل منهن تحاول الإيقاع به والحصول على اهتمامه أو جذب نظره. وكان خجله الشديد يزيد في إثارة الفتيات أكثر، ويمنعه من إكمال الحديث، فقد كانت نظرة واحدة من إحداهن كافية لجعل خديه الجميلين يلتهبان احمرارًا وتجعل عينيه الساحرتين تقفزان هربًا كأرنب مذعور.

كانت نزهة تُراقب باهتمام كيف استحوذ مكين على تفكير الفتيات في القرية كلها بفخر أم ترى ابنها الوحيد يستحوذ مكانة مميزة، وكثيرًا ما قالت للشيخ:

ـ ما رأيك أن نزوج مكين؟

ـ المهم رأيه هو وليس رأيي أنا إلا إذا أردتِ تزويجي أنا.

ـ إذا كنتَ تريد ذلك فلمَ لا. تجيب نزهة بحنق.

ابتسم الشيخ: ومن أين سأجد امرأة رائعة مثلك؟ غمز الشيخ بعينه، وأردف قائلًا:

ـ إذا وجدتُ فتاة تشبهك فأنا موافق، ولكني أشك في ذلك.

ـ أنا أتكلم بجدية وأنت تمزح.

- على العكس أنا في غاية الجدية، فهذا أمر يعود إلى مكين وحده ولن أتدخل في هذا الموضوع ما لم يطلب مني ذلك.

ـ أظنك لاحظت اهتمام الفتيات به.

ـ كل الناس لاحظوا.

ـ إذًا فلماذا لا نزوجه لنضمن بقاءه معنا دائمًا؟

ـ أرى أنكِ خائفة من فقده.

ـ وأنت ألا تريده أن يبقى، ألست خائفًا من أن يحن إلى بلده فيرحل؟

ـ لن يرحل.. قالها الشيخ بثقة وحزم.

ـ لماذا؟ ما الذي جعلك متأكدًا إلى هذا الحد؟ لا بد أن هناك شيئًا تخفيانه عني أنتما الاثنان.

ـ لا شيء نخفيه، ولكنه فقط لن يخذلنا بعد ما فعلناه من أجله.

ـ لا فائدة من الكلام معك في هذا الموضوع، سأتكلم معه مباشرة في الموضوع، وسأقنعه.

ـ هذا عين العقل، وليس لدي أدنى شك في أنكِ ستنالين منه.
على الرغم من صفاته الجذابة التي غالبًا ما تُثير الحسد والعداوات، لم يكن لمكين أي أعداء
حتى أولئك الشبان الذين يحاولون جذب الفتيات واصطيادهن بينما هن منجذبات إلى غريب، لم يكن يُسبب عداوة بل على العكس فقد اعتبرها بعض الشبان فرصة جيدة للقاء الفتيات ومحاولة إيقاعهن في شراك الغرام والعشق.
ولكن أكثر أصدقاء مكين قربًا له ومحبة حبًا حقيقيًا كان الأخوان سالم وسليم، ولدا أم البنين
المرأة المسكينة التي اصطفتها الآلهة وخدمتها الذئاب.
كانوا يقضون الكثير من الأوقات معًا. كان يستمع لصدى تفكيره في كلامهما، فقد كانا يلمحان إلى ثورة ما، ثورة فكرية على هذا الوضع المزري الذي يعايشانه ويعيشانه. وإلى النفوس البريئة التي تذهب ضحية لجنون وهوس حيواني وحشي.
ـ لا يجب أن نُغضب الآلهة، ولكن أين هي هذه الآلهة؟ ولماذا اختارت أمي؟ قالها سليم بمرارة
وعيناه مليئتان بالدموع.
. ما هذه الآلهة القاسية الظالمة التي تخطف أمًا من طفلها وهو في أمس الحاجة إليها؟ أردف سالم.
ـ لماذا؟ لماذا توظّف الآلهة الذئاب لتقوم بانتقاء الضحايا وافتراسهم؟ ما فائدة ذلك لها؟

هل الآلهة هي الذئاب نفسها؟ أم أن الذئاب هي الآلهة؟ ونحن لجهلنا وخوفنا أقرينا ذلك الجنون.
ـلا بد أن أنتقم. قال سليم بتصميم، يجب أن تدفع تلك الذئاب الملعونة ثمن سرقة موئل سعادتنا ونبع العطف والحنان، أمنا. أيًا كان موقعها آلهة أم خدمًا أم مجرد وحوش.
كان مكين يستمع إليهما بصبر، وكلما أراد أن يشد على أياد الشابين تذكر كلام الشيخ "لا تكلم أحد في الموضوع حتى لزوجتي " فيسأل نفسه: إلى متى سأقدر على الصبر والكتمان؟
وفي أحد الأيام، وفي واحدة من تلك المحاورات بين الشابين والتي كانت تتكرر باستمرار فقد مكين تماسكه وثار حماسه وبدأ يتلو للشابين قصة تمرده ثم مطاردته والتآمر عليه في محاولة للتخلص منه ثم فراره في النهاية لأنه يحمل أفكارًا تشابه أفكارهم، وهكذا وصلوا إلى قرارة بئره وعرفوا سره.
جلس الشابان محملقين بمكين مشدوهين ومشدودين إليه فلقد كانت المرة الأولى التي يستطرد فيها مكين بالكلام في أي موضوع كان. فقد كان كعادته دائمًا يقضي الوقت مستمعًا دون تعليق، وإذا ما أصروا على سؤاله أجاب بإيجاز شديد، حتى ظن الجميع ما عدا الشيخ وزوجته بأن الآلهة التي أعطته كل هذا الحسن والجمال قد أخذت شيئًا ما بالمقابل من عقله.
كان يتحدث بصوتٍ واضح صافٍ ونبرة قوية كقائد يبث الحماس في جيشه المحاصر وكان الشابان ينظران بذهول إلى الأسير الجميل وقد كسر طوق الصمت أخيرًا.

أثنى مكين على كلام الشابين ثم أضاف: هذا بالضبط ما حاولتُ فعله هناك ويجب أن نفعله هنا، ثم انتبه لنفسه وتذكّر كلام الشيخ، فسكت فجأة قبل إكمال حديثه..

- لما سكت؟ سأل الشابان:

- يجب أن نكون حذرين. قالها بهدوء وكأنه خائف من مراقبة أحد ما.

- إلى متى؟ قال سليم.

- حتى يحين الوقت المناسب، وإلى ذلك الحين يجب أن تقللوا الكلام كثيرًا في هذا الموضوع يجب أن تعملوا على التهيؤ للحظة المناسبة.

- كيف ذلك؟ قال سالم.

- يجب أن نتدرب جسديًا وعقليًا.

- فكرة ممتازة. قال الشابان بحماس.

سلمى

كان سعيد جالسًا في المنزل يراقب الطفل اللاهي وكله نشاط وصحة وحيوية، فكر في نفسه أنه طفل صغير، ما ذنبه! هذا يكفي ثلاث سنوات مرّت ولم أضع يدي عليه أو أربته أحمله- وأضمه إلى صدري كما يفعل الآباء الآخرون أو حتى مثلما كنتُ أفعل أنا نفسي مع أخته الراحلة في النهاية إنه ابني وقد عوّضني الله به عن المرحومة.

لا، لا.. انتفض وكأنه ارتكب خطأ كبيرًا. لا شيء يُمكن أن يعوضني عنها تلك الإنسانة الرائعة لا. لا. لا أستطيع أن ألمسه، إنه السبب في رحيلها.

كانت سلمى تنظر إلى زوجها وترصد التغيرات التي تعلو وجهه، شاعرة بالحزن والأسى عليه. فهي تريد مساعدته في تخطي الأمر الذي يُرهقه ويستهلكه كليًا، ولكن كيف؟ لقد فعلت كل ما في وسعها للتخفيف عنه والتعويض عن الفقد العزيز الذي فقده، ولكن بدون أن تُحرز الكثير من التقدم.

جلست بجانبه، أمسكت يده بحنان وقالت: يجب أن تخرج من هذه الحالة، هذا يكفي انك تعذب نفسك، ما حصل قد حصل، والزمن لا يعود إلى الوراء، يجب علينا أن نستأنف حياتنا على الرغم من المصائب والصعاب.

نظر سعيد إلى وجه زوجته، إلى عينيها اللوزيتين اللتين تقطران دفئًا وعاطفة وحنانًا وإلى شعرها الأشقر الجميل الذي يُشبه إلى حد كبير شعر زوجته الأولى، ووجهها ذو الاستدارة الخفيفة فهو نسخة عن وجه زوجته الأولى.

يا للمرأة المسكينة! قال في نفسه، ناظرًا إليها وكأنه يراها لأول مرة.

أخافتها النظرة فلقد كان هناك شيء غريب يبرق في عينيه. قرّبت يده من فمها وقبّلتها.

ـ هذا يكفي أرجوك.

ـ لماذا تزوجتها؟ سأل نفسه، لتعتني بالطفل؟ لم أكن أهتم كثيرًا بهذا الأمر لأنهم أرغموني على ذلك؟ ما كانوا ليرغموني لو لم يلاحظوا قبولي.

نظر إليها مليًّا وقد لاحظ الشبه الكبير بين المرأتين. نعم. نعم، لأنها تشبهها، كنت أحاول إخفاء هذه الحقيقة، وهذا ظلم لها لا تستحقه.

ـ أنا آسف. قال تلك العبارة باعتذارٍ صادق:

نظرت إليه مندهشة وقالت: آسف على ماذا؟

ـ على ما سببناه لك من الألم والتعب والحزن أنا والطفل.

ـ على العكس تمامًا، فأنا سعيدة جدًا معك وهذا الطفل بمثابة طفلي وأن أحبه كثيرًا.

ولكن يجب عليك أن تقترب منه أكثر. نظرت إليه في محاولة لقراءة رد فعله ثم أضافت بشيء من الخجل: ومني أيضًا.

ـ نعم معك حق. ثم أكمل لنفسه، ولكني لا أستطيع لمسه، يا إلهي ماذا أفعل؟

ـ حاول بجدية ومن قناعة وحب قالتها وكأنها سمعت تلك الإجابة الخفية.

ـ سأحاول. أجاب سعيد.

ـ وهناك أمر آخر أعتقد أنه سيُدخل القليل من البهجة إلى نفسك وربما الأمل أيضًا.

نظرسعيد إلى زوجته بلا مبالاة فاضحة مع أنه حاول أن يُبدي بعض الاهتمام اللازم ولكنه فشل. وقال مشككًا لا أعتقد أن هناك شيئًا يُمكن أن يحملني على ذلك، ما هذه الأخبار الجيدة؟

ـ أنا حامل.

تذكر سعيد فجأة زوجته الأولى وتلك اللحظة التي أخبرته بحملها الأول وكم كان السرور والأمل باديًا عليهما!

استولى عليه شعور عارم بالفرح وأصبح التبدّل الواضح في هيئته دليلًا على أن الخبر أدى المهمة التي كانت ترتجيها سلمى.

قال لها بتلهف: منذ متى؟

ـ منذ شهرين. أجابت سلمى.

ـ ولم تخبريني حتى الآن؟

قالت وقد تملكها إحساس كبير بالذنب: لو كنتُ أعلم أن للخبر هذا الوقع الجيد في نفسك لأخبرتك منذ اليوم الأول ولكني كنتُ خائفة قليلًا.

لم يسألها لمَ كانت خائفة وممَ فقد كان يعرف السبب. بل قال لها بفرح ظاهر:

ـ هذا خبر عظيم، يجب أن نحتفل، لنخرج إلى مكان ما.

ـ فكرة جيدة فكلانا يحتاج للخروج.

هيأ كل ما يحتاجونه.

ـ هل أنتِ جاهزة؟ سألها بطريقة لطيفة جدًا لم تكن قد رأتها تخرج من فيه من قبل إلا في مرات قليلة جدًا.

ـ نعم جاهزة. ردت سلمى بحماس ممزوج بالأمل.

ـ هيا بنا إذن.

ـ أحضر الطفل.

ـ بل أحضريه أنتِ.

الثورة

كان مكين يرعى قطيعه على أطراف الغابة متجاهلًا تحذيرات الشيخ. فلقد كان المكان مرعى مثاليًا وافر الحشائش والمياه، ولكن أحدًا لا يتجرأ على الاقتراب منه.

وكان عادةً ما يجلس على العشب مسندًا ظهره إلى صخرة ملساء تاركًا لبصره العنان. وهذا ما كان يدعو مخيلته للانفلات والانطلاق في فضاءات الكون اللا نهائية. فجأة سمع صرخة ألم تطلب النجدة بخجل. ظن في البداية أنه يتوهم ولكن تكرار الصرخة جعله يتأهب وينطلق بأقصى سرعته باتجاه الصوت الذي عرفه جيدًا.

اقتحم بوابة الغابة المقدسة دون خوف أو أدنى تفكير بالعواقب حتى وصل إلى فسحة صغيرة بين الأشجار الكثيفة. تجمد رعبًا عندما رأى نزهة تتخبط بين فكي ذئب ضخم. كان في عينيها مشاعر متناقضة من الأمل واليأس، الاستكانة والتمرد.

لم يُعر الذئب اهتمامًا بالمتطفل سوى نظرة شزر لا مبالية وكأنها رسالة تحذير، أن ابتعد من هنا قبل أن أستبدلك بها. فلقد اعتادت الذئاب مثل هذا النوع من المتفرجين، بينما يمزقون ضحاياهم. ولكن الأمر اختلف الآن، فلقد هجم مكين على الذئب اللامبالي وضربه بعصاه ضربة أطلقت نزهة من بين فكيه ليسمح لعواء مرير بالخروج من فم الذئب الذي هجم بشراسة عنف. ولكن ضربة أخرى كانت كفيلة بطرحه أرضًا يُعاني سكرات الموت.

حمل مكين المرأة بعد أن لفّها بعباءته فلم تكن ثيابها الممزقة تُخفي الكثير من جسمها الهزيل.

وضعت رأسها على كتفه وأغفت، ربما من السعادة وربما من التعب والألم، أو ربما لتحلم أن هذه الحادثة لم تكن أصلًا سوى حلم مزعج.

نهض الشيخ على أصوات الضجيج والفوضى التي ملأت ساحة داره الفسيحة ليرى مكين يحمل المرأة المسكينة بين يديه والناس يحيطون به متسائلين عما حدث دون أن ينبس ببنت شفة أو يرد على أي سؤال. كان في داخله بركان ثائر فهذه العجوز المسكينة هي بمثابة أمه فلقد اعتنت به، وعاملته كولدها.

وكان كلما سمع أحد يشكر الآلهة أو يقول أن الآلهة أنقذتها، أو لتساعدنا الآلهة نظر إليه نظرة حنق وازدراء وغالب رغبة عارمة في ضربه..

لتساعدنا الآلهة. أين هي هذه الآلهة؟ وكيف وإلى أين تمثلها هذي الذئاب؟ وما ذنب هذه العجوز المسكينة لتُزهق حياتها ظلمًا وبهتانًا باسم الآلهة وهي أكثر إيمانًا من الكهنة أنفسهم؟

أدرك الشيخ ماهية الحدث، فلقد أخذت المسكينة بعض الطعام إلى مكين وذهبت لتكلمه بشأن الزواج.

قال لها الشيخ كوني حذرة وابتعدي عن الطريق الجنوبي. هذا الطريق الذي لا يتجرأ أحد على استخدامه وخاصة بعد صدور قرار الآلهة بحظر استخدامه ومنع التجوال فيه تحت طائلة الافتراس والموت. وكان ردها الواثق: لا تخف يا شيخ فإن الآلهة تحرسني وتحميني ولن يحدث لي أي مكروه بسبب إيماني المخلص والعميق.

ـ إنما جل خوفي من هذه الآلهة. قالها الشيخ وهو يراقب زوجته تُغادر البيت بحماس وهمة كبيرين.

أدخل مكين المرأة المصابة بينما بقي الشيخ خارجًا محافظًا على رباطة جأشه ليشكر الناس على اهتمامهم ويطلب منهم العودة إلى أعمالهم.

ـ حمدًا للآلهة على سلامتها. إذا احتجت إلى المساعدة فابعث إلينا.

كانت العبارات تصدر من هنا وهناك بطيبة وصدق، ولكن الشيخ لم يسمع شيئًا مما يقولون فقد كان يحاول السيطرة على ذلك التنين الذي انطلق في داخله نافثًا نيران الغضب والاشمئزاز.

ـ بورك بكم، وشكرًا. قالها الشيخ وهو ينظر إلى هؤلاء الناس البسطاء وكيف تتلاعب بهم يد الأقدار كورقة شجر يابسة تتقاذفها الريح أنى شاءت.

دخل الشيخ إلى البيت ليرى المسكينة ممدة على الفراش وكانت ثيابها الممزقة وجروحها الدامية تحكي ما حدث بجلية ووضوح. كانت ترتسم على ثغرها ابتسامة صفراء ولكنها انفجرت بالبكاء عندما دخل الشيخ.

يجب أن أذهب الآن فقد تركت القطيع ولا يوجد من يحرسه، وأخاف أن يأتي أولئك الخونة ويغتنمون الفرصة ويسرقون منه ما يشاءون. قال مكين في محاولة للهروب من هذا المشهد المؤثر والحزن والغضب يضرمان في داخله، ودموع حارة تحاول تحطيم سد الخجل والممانعة التي لا يريد لها أن تتهاوى أمامهم.

ـ نعم اذهب أحضر القطيع وعد مباشرة، يكفينا ما حصل اليوم, ظن الشيخ أنه قد قال كلماته بنفس الهدوء المعهود، ولكن المرارة والألم كانت طافيتين وواضحتين في النبرة الحزينة.

ـ أمرك يا شيخ, قالها مكين وخرج قبل أن يبدأ بالبكاء..

جلس الشيخ بجانب زوجته. الغضب والهم واليأس حاضرون بقوة في كل خلية من خلاياه، لقد كان يعزي الآخرين ويواسيهم بكلام فارغ لامعنى له ولا

صلة له بالحقيقة أو الواقع، ولكنه مع ذلك كان يفعل فيهم فعل السحر فيخفف الألم ويهون المصاب ويتقبلون المأساة بقلب مفتوح ونفس مؤمنة راضية. لكن من سيُخفف مصابه وهمه هو؟ وتلك الوصفة السحرية فقدت مفعولها لديه منذ زمن بعيد، ورغم اجترارها عبر الزمن فهو ليس مقتنعًا بأي كلمة منها.

ـ أرى أنكِ بخير. قالها متصنعًا ابتسامة:

ـ لولا مكين لكنتُ الآن بين أيدي الآلهة، وأراكم من هناك، ولكنه أعادني في آخر لحظة لقد كنتُ قريبة جدًا من الموت.

ـ وهل هُنّا عليك كثيرًا لتتركينا؟

ـ لم أُقرر ذلك ولكن الآلهة فعلت وبعثت رسلها لتنفيذ المهمة. قالت نزهة بقناعة وإيمان.

ـ لم يضع معه الخبز والملح. قال الشيخ ناظرًا إلى أبعد من ذلك.

ـ أجابت نزهة بفخر: نعم فقد هجم على الذئب الحارس دون خوف أو تردد وكأنه أسد هصور. ثم تذكرت أنه عاد إلى قرب الغابة فخافت عليه من الثأر والغدر، لماذا تركته يذهب الآن

فلربما لم تكن الآلهة راضية على عودتي، وهكذا تنتقم منه لوقوفه في وجه مشيئتها.

ـ لا تخافي عليه. أجابها الشيخ وكان سيكمل بأنه هو من سيتخلص من تلك الوحوش التي تسمي نفسها حرس آلهة. ولكنه لم يقدر على قول ذلك،

فبالرغم من تلك الحادثة ووحشيتها التي تعرضت لها المرأة، فإنها ما تزال تلك المرأة المؤمنة بالآلهة والوفية لهم ولحراسهم. ولن تقبل بعكس ذلك.

يجب أن ترتاحي قليلًا. حاولي أن تنامي، ثم قال مازحًا وهو يضع الغطاء على جسمها بتأنٍ:

ـ هل أقنعتِ مكين بالزواج؟

لا ، فقد تعرضت للحادثة قبل أن أصل إليه، ولكني سأتكلم معه عندما يعود.

خرج الشيخ مبتسمًا، وكانت الابتسامة تخفي سوداوية وكآبة شديدة الحضور في نفسه وروحه، وكما هي العادة في مثل هذه الحالات، دخل صومعته وبدأ يكتب.

وصل مكين إلى مكان القطيع وقد كان يحرسه الأخوان سالم وسليم. وكانا قد سمعا بالحادثة من أهل القرية فأتيا إلى هنا ليسمعا القصة الحقيقية من صاحبها مباشرة. والاهتمام بقطيعه ريثما يعود.

أطلق مكين زفرة ارتياح عندما رأى الأخوين هناك فقد كان يخشى الغدر.

ـ مرحبًا، وشكرًا لكما على اهتمامكما وحراستكما القطيع. قال مكين بامتنان.

ـ قال سالم: لا شكر على واجب، هذا أقل ما يمكن أن نفعله.

ـ قال سليم: نحن من يجب أن يشكرك فقد انتقمت لنا من تلك الوحوش.

إنها البداية فقط، قالها مكين بتصميم وتحدٍ. والأخوان ينظران إلى الرجل الذي وُلد من أعماق نفسه وعلى نقيضها.

ـ أخبرنا ما الذي حدث، فإن كلام سكان القرية لا يمكن أن يؤخذ على جانب كبير من الثقة،

فلم يكن أحد منهم حاضرًا ومع ذلك فإن كل منهم يروي الحادثة وكأنها حصلت معه شخصيًا.

أخبرهم مكين بالقصة كما حدثت بالضبط.

ـ إذًا بدأت الحرب؟

ـ نعم وبشدة.

ـ ولكن كان عليك أن تجهز على الذئب.

ـ لا داعي لذلك فهم سيفعلونها.

نظرة إيجابية

استيقظ سعيد على صراخ سلمى، كانت مبللة بالعرق تمامًا كما لو أنها كانت خارجة من تحت عاصفة مطرية. هزها بعنف وهو يصيح:

ـ سلمى، سلمى.

استيقظت سلمى متوجعة مهدودة القوى. أمسكت يده وضمتها إلى صدرها، كانت ترتجف وحرارتها المرتفعة احتلت جسدها بأكمله.

ـ أأنتِ بخير عزيزتي؟ لا تخافي إنه مجرد حلم.

ـ بل كابوس مزعج ومخيف جدًا، أرجوك احمِني. ثم بدأت بالبكاء كطفلة صغيرة.

ـ لا تخافي. ضمها إلى صدره بقوة.. لن أدع شيئًا يقترب منك أو يزعجك، يكفيني ما فقدت.

كانت دمعة هاربة تنحدر على خديه..

أحست سلمى بالاطمئنان والدفء فغفت على صدر زوجها الذي بقي يُراقبها وقد غمرته سعادة عارمة وهو ينظر إليها:

ـ الله ما أجملك! إنكما حقًا لمتشابهتين جدًا، لقد عوضني الله عنها بك.

قفزت دمعة من على وجنة سعيد لتصل عين سلمى وقبلتها بوَلَه، أجفلت سلمى وفتحت عينيها وقد أصبحتا في أوج صفائهما.

ـ أنا آسف، لقد أيقظتك. قال سعيد.

على العكس، إني مرتاحة جدًا وكأني نمت وقتًا طويلًا، إن عطفك وخوفك عليّ وهذا الحنان والرقة التي أحطتني بها قد مسحت كل أثرٍ للتعب أو الخوف..

ـ وهل عندي أغلى منكٍ لأهتم به أو أخاف عليه؟

كانت تنظر إليه بإعجاب شديد وعشق جنوني، يا له من إنسان رائع. إنسان بكل معنى الكلمة عاطفي ورقيق وقوي وجرئ في آنٍ واحد.

كما أنا محظوظة لأنه ليس واحدًا من أولئك الرجال الآخرين المتزمتين والمتعصبين!

تعصب أعمى لعادات وتقاليد بالية ومتخلفة التي تنظر إلى المرأة على أنها ذلك الشر المقيم، وأكبر شرورها في أنها لا بد من وجودها. ذلك المخلوق الأدنى بعرف الشرع والمجتمع ولا ذنب لها سوى أنها أنثى مستندين على نصوص دينية من قول الخالق ناسين أو متناسين أن الله خالقها عادل ومنزه عن الظلم.

هناك كذب وتلفيق شديد فيما يختص بنا نحن النساء.

كلنا أبناء آدم وحواء كلنا أخوة، فلماذا هذه التفرقة والتحيز وأين مكمن الخطأ؟ أفي هذا الاختلاف الفسيولوجي الذي وضعه الخالق لأداء وظيفة الاستمرارية وليس كوصمة عار لنا.

كما وضع للذكر ذلك الشيء الذي يتباهى بملكيته، ويُعطيه الحق لممارسة كل هذا الطغيان والظلم والقهر لمجرد امتلاكه، وهو لا يتعدى صورة أخرى لما نملك ولنفس الوظيفة.

فهذا الذي جلب له العظمة والعلو، جلب لنا الذل والسجن والانعزال. فهل الله ذكر؟ وهل له عضو تناسلي على شاكلة الذكور؟ ولهذه يتباهى الذكر بأنه

خليفة الله ولا يحق لأنثى أن تكون كذلك لأننا نحن بنات حواء من جنس إبليس، هل كانت أمنا من بنات إبليس أيضًا؟ وهي التي خُلقت من ضلع آدم الذكر. ولمَ وُسمت المرأة بالخطيئة التي تُلاحقها وتُنسب إليها؟ وما تلك الحرب الفظيعة ضد النساء إلا نتيجة خوف ضمني يعتمل في صدور الذكور من قوة المرأة، ومن المكانة التي يمكنها أن تُحرزها حتى لتحيد الرجل عن مكان كان أصلًا ملكًا لها، وربما عادت الصفات الأنثوية إلى الإله ثانية ولطفت من قسوته.

قد يظن البعض بأن هذا القول هو ضرب من التجديف والكفر، ولكن لا. التجديف هو اتهام الله بالظلم والتحيّز وبالكثير من الجرائم التي ارتكبها ويرتكبها البشر. وما وراء هذه الاتهامات إلا أولئك الذين يُسمّون أنفسهم عبيد الله وقديسيه، هؤلاء الكهنة الذين وإن اختلفت أسماؤهم فإن لهم نفس الصورة ونفس الهدف وهو خدمة إلههم الشخصي ونفوسهم الدنيئة. وهذا رجلي، إنه ليس كالرجال الآخرين فهو لا يرى أي فرق يتخطى الفرق الفسيولوجي الوظيفي. فهو يقول دائمًا بأن لكل منا وظيفته وفي الكثير من الأحيان يقول: ربما كان دوركن أنتن النساء أكبر وأجل فأنتن الأرض التي تستقبل البذرة وترعاها حتى تُصبح شجرة تستطيع الوقوف في وجه المصاعب والأهوال. المرأة أمنا وأختنا وبنتنا.

كانت النسوة يحسدنها على هذا الرجل المتفهم وكانوا يصفونه بالحضاري وقد كانت تملؤها الغبطة والنشوة كلما سمعت كلام النسوة عنه.

كان ينظر للبعيد، ترى بماذا يفكر؟ هناك شيء يؤرقه ولا يبوح به. تساؤلات كثيرة كانت تجول في خاطرها.

حركة صغيرة منها أعادته من شروده فنظر إليها ببسمته الودود الحنون..

ـ أرى أنكِ أصبحتِ بخير الآن.
ـ وكيف لا ولي ملاك يحرسني ويحميني؟
علا خداه لون وردي. كم يبدو ساحرا في خجله قالت في نفسها
ـ والان هل تريدين أن تقضي عليّ بما كنتِ تحلمين؟ وما أخافكِ إلى هذا الحد؟
ارتبكت قليلًا فهي لا تريد أن تُخبره عن حلمها المزعج لأن ذلك سيزعجه هو الآخر
وربما أكثر منها.
ـ ليس الأمر هامًا، لقد أصبحتُ بخير.
عندما لاحظ أنها تحاول إخفاء الأمر، عرف أنه يتعلق بالولد فقال:
لماذا هل للولد علاقة بذلك؟
- لا لا إنه أمر مختلف تمامًا ولا علاقة له به. أجابت وهي تدير وجهها بعيدًا عن عينيه فلقد كان انفعالها واضحًا وهي متأكدة من أنه سيكشفها.
كانت الإجابة دليل صارخ على أن تكهنه كان صحيحًا وكأن هذه اللا المشددة هي نعم بالتأكيد لم يرد أن يضغط عليها مع اقتناعه بأنها يجب أن تتكلم وتواجه هذه المخاوف وإلا فإنها سوف تعاودها بصورة أشد وأعتى.
ـ حسنًا عودي للنوم، يجب أن ترتاحي.
ـ وأنت؟
ـ لا أحس بالنعاس.
هاجمها إحساس كبير بالذنب، فلقد أيقظته من نومه وقد كذبت عليه. ولكنها لم تفعل ما فعلت بنية الكذب، بل لأنها لا تُريد أن تُكدّره، كذبت وأدركت أنه عرف ذلك ولكنه لم يقل شيئًا. فلو كان واحدًا من أولئك الرجال لكان أقام الدنيا وأقعدها ولطاولت صرخاته واتهاماته السحاب.

لم تعرف كم من الوقت مضى وهي تطير من فكرة إلى فكرة حتى أغفت في النهاية.

ولكنها عندما استيقظت صباحًا، وجدته بجانبها وكان الإجهاد والتعب واضحين على وجهه.

تعمّدت عدم ذكر الموضوع نهائيًا. ولكن تعابير خوف كانت تظهر على وجهها كلما

اقتربت من الطفل لتُطعمه أو تُلبسه.

قال في نفسه: لا بد أن عدوى كره الطفل قد انتقلت مني إليها، يجب أن أكلمها ثانيةً غدًا.

ـ ما بي متأثرة إلى هذا الحد! قالت سلمى لنفسها: إنه مجرد حلم، وهذا ليس مبررًا كافيًا لهذا النفور.

مر الوقت بطيئًا جدًا ذلك اليوم وكأنه لا يريد أن ينتهي، وعندما جاءها الفرج مع إقبال الظلام، أسرعت إلى النوم مبكرًا متذرعة برغبتها في تعويض ما فاتها من نوم ليلة البارحة، ولم يكن هذا هو السبب الرئيسي، بل كان هربها من مواجهته بعدما حدث فما زالت تحس بالذنب لكذبها عليه.

ولكنها استيقظت على اليد الحنونة تهزها، وصراخ بعيد جدًا يُناديها باسمها طالبًا منها بإلحاح شديد أن تستيقظ. فتحت عينيها بارتياب وشك.

ـ نفس الحلم؟ سألها سعيد.

ـ نفس الكابوس.

أحضر كأس ماء وساعدها على الجلوس: اشربي قليلًا لتهدأ أعصابك.

بدأت ببكاءٍ صامت.

ـ يجب أن تتكلمي لأن ذلك يُريحك.

التطهير

كانت نزهة تهيؤ لمكين الطعام، عندما دخل عليها، أمسك يدها ورفعها إلى فمه وقبّلها بجلال وحب. ـ كيف أصبحتِ الآن؟

ـ بخير.

كانت آثار الحادثة ما تزال ظاهرة على جسم العجوز وبشكل خاص تلك الجروح العميقة على ساعديها ورقبتها. قال لها:

إني أحس بالذنب لما أصابكِ، لو كنتُ أرعى القطيع في مكان آخر لما كنتِ اضطررتِ إلى سلوك ذلك الطريق الخطر.

ـ لا ليس الذنب ذنبك، إنما ذنبي أنا، فلم أكن أتوقع يومًا من الآلهة أن تؤذيني أو أن تتخلى عني. ربما كنتُ قد اقترفت بعض الأخطاء، وحصل ما حصل للتكفير عنها.

استنكر مكين في نفسه، وأي تكفير هذا فلولا وصولي في الوقت المناسب لكان الثمن باهظًا جدًا. ولكنتِ قد دفعت حياتكِ ثمنًا لأوهام باطلة.

ـ عد مبكرًا اليوم، فهناك حديث هام أريد أن أجريه معك.

ـ خيرًا؟

ـ ستعرف عندما تعود.

ـ حسنًا سأفعل.

حمل طعامه وخرج مفكرًا، ما عساه يكون هذا الموضوع الهام؟ ربما كانت نزهة تريد معاتبته على تجرؤه على حراس الآلهة؟ على الرغم من أنه قام بذلك لإنقاذ حياتها.

ربما هناك شيء آخر سأعرفه عندما أعود.
ـ لا تتأخر أرجوك..
ساق قطيعه إلى مكانه المفضل على أطراف الغابة، فقد كان يستخدم القطيع كطعم لجذب الذئاب ولكن ما حصل للذئاب في حادثة نزهة قد أفهمها أن رهبتها قد سقطت على الأقل لدى شخصٍ واحد، الرجل الذي هاجمها.
وهل أدركت أنه يريد تصيّدها؟ ربما؟!
يُقال بأن الحيوانات المفترسة تقوم بما يشبه الدراسة النفسية لفريستها، فإذا ما أحست بأن الخوف يتملكها انقضّت عليها مباشرة وافترستها، وأما إذا استشعرت فيها عدم الخوف أو القوة تجنبتها حاقدة حانقة. وربما هذا ما حدث مع تلك الحيوانات التافهة.
بماذا تفكر؟ قال سالم وقد وقف بجانب مكين دون أن يراه.
ـ مرحبًا.
ـ ما بك تبدو مشغولًا وكأن شيئًا سيئًا يكدّرك؟
ـ لا أدري.. أُحس بشيء ما لا أعرف ما هو، فقد طلبت مني نزهة العودة مبكرًا للحديث في موضوع هام كما قالت.
ـ وما هو هذا الموضوع؟
ـ لم تقل شيئًا. ولا أستطيع التخمين.
ـ كنتُ أظن بأننا سنقوم ببعض التدريبات الليلة، فإن الحادثة الأخيرة قد دقت ناقوس الخطر.
ـ انتهى وقت التمارين والتدريبات.
ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن وقت الاستعداد قد انتهى، وأتى وقت العمل والحركة. يجب أن تطهر الغابة من الخوف والغدر. يجب أن يشعر الناس بالأمان ويصبحون قادرين ولهم كامل الحرية في استثمار الغابة الإفادة من ثرواتها. يجب التخلص من تلك الوحوش.

ـ إذًا سأذهب وأخبر سالم ليستعد فهو ينتظر بفارغ الصبر هذه اللحظة.

ـ لا، فقط ابقوا متأهبين، ولا تقوموا بأي عمل حتى أطلب منكم ذلك، وعندها سأُحدد لكم الزمان والمكان والكيفية.

ـ تعني أنك ستعمل وحيدًا؟

ـ هذا أفضل في البداية. يجب ألا نُثير الشبهات ونؤلب الناس ضدنا منذ البداية فيقفوا في وجهنا. سأبدأ بالعمل حتى يعتاد الناس على ما يحدث وبعدها سنقوم بالخطوة الحاسمة والتطهير النهائي للغابة، وسنصل إلى التل ونطرد الآلهة من هناك وربما نقتلها.

ـ وكيف لنا أن نقف متفرجين، ربما أصابك مكروه، أو غدر بك، فسينتهي حلمنا حتى قبل أن يبدأ.

ـ لديكم الكثير من العمل الهام، يجب عليكم أن تستقطبوا الشبان، وتحاولون توعيتهم
وإشعال نار الثورة والمنطق والعقل فيهم.

ـ فكرة ممتازة.

ـ ولكن احذروا أولئك المتملقين فإنهم سيكونون خناجر في ظهورنا.

ـ مثل صديقك.

ـ مثل من كان يدّعي صداقتي.

ـ وماذا عن الكبار هل نحدثهم أو نحاول استمالتهم أيضًا؟

ـ ليس الآن فهناك تكمن الخطورة القصوى، سأكلّم الشيخ في هذا الأمر.
ـ الشيخ! صرخ سالم مذعورًا: الشيخ! كيف تقول لي أن الكبار خطرون ويجب الابتعاد عنهم وها أنت ذاهب مباشرة إلى أخطرهم.
ـ هل تشك في معرفتي الصواب وفعله؟
ـ لا ولكني متفاجئ..
ـ سأخبرك فيما بعد وستكون المفاجأة أكبر.
ـ إنك تزيد من إثارتي.
ـ لنترك كل شيء إلى وقته المناسب.
ـ حسنًا أنا ذاهب وسأخبر سليم بالخطة.
ـ لا تنسَ توخي الحذر فهو طريق النجاة.
ـ حسنًا. أراك غدًا وتخبرنا عما حدث مع نزهة وموضوعها الهام.
ـ بالطبع.

****

حزمت الشمس حقيبتها بعجل، قبّلت التلال قبلة دافئة ثم غرقت خلف طياتها بعد أن أعطتها موعدًا للقاء في اليوم التالي.
بدأ الشحوب يكسو التلال حزنًا على فراق رفيقتهم الأبدية.
كان مكين يُفكّر في هذا النظام الهائل الذي يسير الكون، هذه القوانين الثابتة أبد الدهر والدقيقة منتهى الدقة.
كيف خلق الكون ومن ابتكره، لا أدري. ولكنني جد متأكد بأنها ليست من صُنع تلك الآلهة التي تحتل التل هنا أو تلك في تل البلابل.
وما أولئك الكهنة بأشكالهم وأسمائهم المختلفة إلا وجه لعملة واحدة زائفة، ابتكرتها مخيلة أولئك الناس البسطاء وجهلهم، وثبتها خبث هؤلاء السفلة

ومكرهم وأكثر ما ضمن لهم الاستمرار هو تغييب العقول وتربتهم النفوس على تقبل كل أقوالهم وأفعالهم على أنها أمر الإله بلا اعتراض، أو حتى سؤال أو طلب استفسار.

يجب أن يتغير هذا الوضع المزري، والمهين للإنسان ولقدراته وللإله في آنٍ معًا، يجب.. وستكون تلك مهمتي ولو قضيتُ في سبيلها، أحس أن شيئًا يحركني، قوة جبارة، شيئًا لا مرئي يدفعني لفعل ذلك.

جمع قطيعه وعاد إلى البيت. فهو لا يريد أن يعصي أمرًا لنزهة أو يرفض لها طلبًا مهما كان على الرغم من أن توجسه كان يزداد بإطراد مع اقترابه من البيت.

ربما كان الموضوع مختلفًا جدًا عما يدور بخاطري، هذا ما تمناه.

عندما دخل مكين كان الشيخ وزوجته يتكلمان..

ها قد جاء: قال الشيخ.

.أهلًا أهلًا لا أستطيع الانتظار أكثر، سنأكل أولًا. وبعدها نتكلم.

.لا بد أنك جائع.

.نعم كثيرًا. أجاب مكين.

.لنُسكت جوعك أولًا وإلا فإنه لن يدعنا نتكلم.

كانت تلك اللهفة التي تتكلم بها نزهة تُبدي أنه من المستحيل أن يكون ما بجعبتها أمر مزعج وهذا ما أزال مخاوفه تمامًا..

.لتُعنك الآلهة. قالها الشيخ ضاحكًا.

.وأنت ألا تُعينني يا شيخ؟

.سأحاول ولكننا لن نقدر على نزهة.

تناول طعامه بهدوء وهو يُفكّر في القيام بجولة مسائية حالما ينتهي من الموضوع العالق.

أخذت المرأة كرسيًا ووضعته وجلست في مقابل مكين وقالت:

- لم ترزقنا الآلهة أبناء من صلبنا، ولكنها كانت رحيمة معنا وعوضتنا بك. لن تتمنى أي امرأة ابنًا أفضل منك.

- هذا كثير عليّ؟ قال مكين بتواضعٍ شديد.

لا ليس كثيرًا، واسمعني أرجوك حتى أكمل كلامي ولا تظن أني أتسلى أو أمزح.

عاودته المخاوف ثانيةً..

نعم طلبت منك الحضور لأن الموضوع هام جدًا بالنسبة لي.

هل تدري بأن أعظم لحظات السعادة لدى المرأة هي أن ترى ولدها وقد أتى إلى الحياة كاملًا معافى. وهذه السعادة قد حُرمت منها، وأما اللحظة الأخرى التي توازي اللحظة الأولى من حيث الأهمية فهي أن ترى ولدها في ثياب العرس وبجانبه عروس جميلة سوف تغمرها الفرحة والسرور. لقد حُرمتُ من الفرحة الأولى ولكني مصممة على ألا أُفوّت الفرحة الثانية وأكحل عيناي برؤياك سعيدًا.

- إني سعيد معكما وبكما. كان رد مكين صادقًا..

- أعرف ذلك، أنت ولدي الآن وأريد أن أزوّجك.

لم يكن غريبًا يفكر في هذا الموضوع بتاتًا حتى أنه لم يمر بذهنه كاحتمالٍ ممكن..

- أعتقد أنك لاحظت بأن كل فتيات القرية يهتمون بك. وكل واحدة تحاول الإيقاع بك في شباكها، على كل حال فالأمر ليس سرًا فالقرية كلها تعرف. حتى

أن بعض الفتيات قد بُحن لي بأن لك مكانة كبيرة في قلوبهن، ويمنين أنفسهن بالقرب منك.

لم يدرِ ما يقول، وقد علت خداه حمرة خفيفة من الخجل؛ جعلته جميلاً ساحرًا..

لم يرفع عيناه عن الأرض فقد خبأهما بعيدًا عن عيني المرأة الخبيرتين.

ألم تستهوكِ أي من الفتيات اللواتي رأيتهم وقد كن يتقصّدن المرور بالقرب منك أو الحديث معك؟

لقد لاحظ ذلك. ولكنه لم يُفكر بالموضوع فقد ظنّ في البداية بأنه لشيء طبيعي لكونه غريبًا ويحمل الكثير من الصفات التي تُحبها الفتيات في الرجل..

ـ ألم تستهوك واحدة منهن؟ أعادت سؤالها فقد ظنّت أنه لم يسمعها.

ـ لا. قالها بسرعة وبدون تفكير فهو لا يريد ان يستطرد أكثر في هذا الموضوع فلقد أيقظت كلمات نزهة فيه أشياء غافية لم يكن يريد لها أن تصحو، على الأقل الآن ثم تذكر فجأة الفتاة ذات الشعر الأبنوسي والعينين الحوراوين، وتفاح خديها الذي يُغري أي شخص لارتكاب الخطيئة مرات ومرات، ثم ذلك الفم المثير وتلك الضحكة الساحرة.

كان يتمنى أن يقول لنزهة أن هناك ملاكًا قد سلب لبه وطار به، ولكنه تذكّر أن بانتظاره مهمة أكثر أهمية وإلحاحًا من مسألة زواجه.

ـ أراك ذهبت بعيدًا. ربما كانت قد تنبأت أن إحداهن تُشغل تفكيره وأن خجله قد منعه من البوح باسمها.

ـ اترك لي الموضوع وأنا سأختار لك ما يناسبك. قالتها لتريحه من سطوة الفكرة وثقلها عليه.

ـ لا. لا أريد أن أتزوج الآن، خاف كثيرًا من أن تختار له نزهة فتاة أخرى. فإذا قبل معها فسيكون عليه قبول من تختارها نزهة..

ـ لماذا يا بني؟ ألا تريد أن تراني سعيدة؟

ـ نعم، هذا كل ما أتمناه أن أراكما بسرور وخير وسلامة.

ـ إذًا لماذا؟

ـ لأن هناك أمورًا أكثر أهمية تُشغل تفكيري.

ـ خافت نزهة، فقد ظنت أنه يُفكّر في العودة إلى أهله وبلده.

ـ هل ستتركنا بعد أن تُعوّدنا على وجودك بيننا وأصبحتَ واحدًا منا؟ هذا ما كنتُ أخاف منه وقد طمنني الشيخ من أنك لن تتركنا ثانيةً. خرجت دموع سخية من عينيها.

الشيخ يقول الحقيقة فلن أترككم أبدًا.. قال مكين: أنتم أهلي الوحيدين وبلدي الآمن.

انفرجت أسارير المرأة وقالت: إذًا ما الأمر؟

ـ أمور يجب أن أنجزها أولًا.

تذكّرت نزهة الحادثة التي جرت معها والتهديدات التي أطلقها غريب في تلك اللحظة هل يمكن أن يكون هذا ما يفكر به، لا غير معقول، إنها ردة فعل فقط. أنا متاكدة من أنني مخطئة. ولكن يجب أن تعدني بأنك ما أن تنتهي من أمورك فسوف تُحقق لي أمنيتي. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وحتى ذلك الوقت سأبحث بتروٍ وأختار لك ما يليق بك، الأكفأ والأجمل.

وكانت قد اختارت مسبقًا ولكنها لم تقل له ذلك.

- حسنًا ولكن الوقت مبكر على ذلك. وكان يتمنى أن يقع أختيارها على ذات الشعر الأبنوسي.

- لا عليك. قالت نزهة.

دخل الشيخ ورأى الفرحة تتقافز على وجه نزهة وفي عينيها بريق ولمعان فعرف أنها انتصرت في إقناعه.

ـ ما هذا الاجتماع السري؟ هل تتآمران عليّ؟

بل عليّ. رد مكين.

قالت نزهة بغبطة شديدة: لقد وافق مكين على الزواج بعد أن ينتهي من بعض الأمور الهامة كما يقول. وقد ترك لي حرية اختيار العروس.

وما هذه الأمور؟ سأل الشيخ.

لا أدري؟ وأتمنى أن تكون أمورًا صغيرة وتنتهي بسرعة.

- إذًا لقد انتصرتِ؟

- نعم. قالتها بكلها وكأنها هي من سيتزوج ثم خرجت.

نظر الشيخ والغريب إلى بعضهما وقد خمنا أنها خرجت لتنجز مهمتها هي أيضًا في البحث عن العروس المناسبة..

ـ إذًا تريد الزواج؟

ـلم أُفكر بالموضوع مسبقًا، نزهة التي تريده.

ـ إذًا بماذا تفكر؟

ـ هذا ما أريد أن أكلمك به. هذا هو موضوعي الهام.

ـ إذًا دعنا ندخل الصومعة، حتى لا يُقاطعنا أحد. قال الشيخ وقد خمن ماهية الموضوع وأهميته. فكم من المرات أراد أن يتكلم حول ذلك بعد حادثة نزهة ولكنه أحجم عن ذلك.

دخل الشيخ وأخرج مفتاحًا صغيرًا وفتح صندوقه الصغير وأخرج كنزه السري.

دُهش مكين من الكم الهائل للأوراق التي تحمل شيئًا مشتركًا بينها جميعًا وهو عنوانها المتكرر:

لماذا؟

يجب أن تقرأ هذه الأوراق. طلب منه الشيخ.

- سأقرؤها بعد أن ننتهي. قال مكين.

- كلي آذان صاغية.

- اعذرني يا شيخ.

- لا تعتذر ولا تتحرج من قول أي شيء.

- هل ما زلت تذكر ذلك اليوم الذي أتيتُ فيه إلى هنا هاربًا وطالبًا الحماية؟

- نعم وأذكر أن الموت كان يطاردك لأن الآلهة أرادتك أضحية أو ضحية.

- صحيح وقد قمتَ برعايتي أنت ونزهة وهكذا نسيت حنقي أو تناسيته بناءً على طلبك.

ولكن عندما حدث ما حدث، وهجمت الذئاب على نزهة، عاد ذهني يضج بإلحاح عليّ لفعل شيء ما وعادت فكرة الانتقام حيّة متجددة.

وفي كل يوم كنتُ أعود بذاكرتي إلى ما حدث وما سيحدث، وكم من الأرواح أُزهقت

وستزهق فقط لإشباع غريزة تلك الذئاب، ولهذا قررتُ بأن الأدوار يجب أن تتغير.

- كيف ذلك؟ استفسرالشيخ.

قال مكين بحماس: سوف أُطارد الموت الذي كان يُطاردني، سأقضي على تلك الذئاب، وسأصل إلى التل وأُنظفه من الآلهة المتخفية الجبانة.

كان الشيخ على علم بأن هذه الفكرة قديمة في ذهنه منذ اليوم الذي أتى به هنا بل إنها هي من أحضرته.

ولكنه كان يحاول كتمانها كما حصل مع الشيخ نفسه، وبناءً على طلب الشيخ فهو مثله ثائر متمرد ولكن طريقته مختلفة. فها هو يثور ويطهر على طريقته. يطهرالشيخ نفسه ويثور عليها ثم يضعها في صندوقه السري.

وجاءت الحادثة وأججت النار في صدر كليهما.

اكتشف الشيخ وأيقن بأن الانصياع والرضوخ لقوى ظالمة شريرة هي خطأ كبير ويزيد من ظلمها وشرورها، ولا يمكن أن يؤدّي إلى أي نوع من الأمن والسلام..

يجب أن تندلع ثورة ترفع من قيمة الإنسان المضطهد الذي يفني حياته كدًا وجهدًا وعملًا في خدمة الآلهة وتكون النتيجة والمكافأة بين فكي الفقر والموت.

وهذه نزهة رمز المؤمن المخلص الطيّع للآلهة وخدمتها وكانت النتيجة أنها ذاقت رعب الموت وسارت نصف رحلته لولا هذا الغريب "الكافر" الشرير كما حاولوا أن يوصِموه. كيف يمكن أن يكون العقل والطيبة وحب مساعدة الغير والإحساس بهم شرًا وكفرًا.

والمتوحشون والمستغلون والقتلة هم خدمة الآلهة أو الآلهة أنفسهم.

إن الإنسان هو الإله الأسمى، والعقل هو ما يجعله إلهًا والقلب يجعله رحيمًا.

فكفانا وأدًا للعقول والقلوب. ثُر أيها الإنســان وأعد ما اغتصــب منك. كانت أوراقه مزدحمة بهذا الفكر.

توخّى الحذر يا بُني. تمنى الشــيخ أن يكون أصــغر ســنًا وأن يكون قادرًا على العمل الذي كان يسكنه طول سني عمره.

ســأقوم بالأمر بهدوء وروية، وســيلاحظ الناس أن هذه الذئاب، ما هي إلا حيوانات متوحشــة جبانة استشــعرت فينا الضعف والاســتكانة فأصبحت قوية لا رادع لها.

سـأصـطادهم واحدًا تلو الآخر، وسـأعرضـهم على الشـجرة الكبيرة في طرف الغابة، دون أن يعلموا من الفاعل.

قال الشــيخ بحماس: وأنا ســأُهيئ العقول لفكرة التغيير بأن الذئاب قد أصــبحت طاغية، وأنها بعد أن كانت تُمثّل الآلهة وتحرس الغابة المقدســة طُردت من تلك المكانة لكثرة ما طغت وتجبرت. ولهذا بعثت الآلهة مخلصًــا لأن الآلهة ترفق بأولادها الضعفاء المخلصين وهكذا سيستقبل الناس فكرة التخلص من الذئاب بل ويؤيدونها. حتى إذا ما عرفوا أنك الفاعل فلن يكون هناك أي خطر عليك، بل على العكس، فســيرون أن من واجبهم تقديم المساعدة. على الأقل وجدانيًا.

وهكذا تُطهر الغابة وتستثمر للبناء والزراعة. قال مكين بأمل كبير..

ولكن ابقَ بعيدًا عن التل. حذّره الشــيخ، فهناك الكثير من الروايات التي تقول بأنه ما من أحد وصــل التل وعاد ســالمًا، وأنت يجب أن تبقى لإكمال عملية التغيير والإصلاح.

حســنًا الوقت مبكر على ذلك، فالغابة أولًا، وبعدها ننظر في موضــوع التل.
رد مكين وفي نيته خطة أخرى ولكنه لم يُرد التورط والاندفاع في كلام قد يجعل الشيخ يتراجع عن مؤازرته ومساعدته.
عندما تنتهي مسألة الغابة ستجبرك نزهة على الزواج ولن تتهاون في ذلك وأنا مع هذا الرأي. يجب عليك أن تتزوج وتُنجب جيلًا جديدًا وتُربّيه تربية جديدة سليمة.
إلى ذلك الحين يجب أن يكون العمل الرئيسي والتفكير الوحيد هو في العمل والتطهير من جهة والتوعية من جهة أخرى. قال الشيخ.
- حسنًا أنا ذاهب الآن.
- ستبدأ الليلة؟
- نعم. كفانا تأخيرًا فخير البر عاجله.

الحلم

كنتُ مستلقية في الفراش عندما استيقظتُ على صوتٍ عذب يُناديني باسمي:

- سلمى هيا انهضي.

فتحتُ عيني وإذ بامراة عجوز تقف بجوار السرير عجوز جميلة جدًا، وتظهر قسماتها الطيبة والودّ.

- انهضي يا ابنتي. قالتها بحنان..

استويتُ في الفراش وأنا مذهولة وأنظر حولي لأعرف أين أنا، كنتُ هنا في هذه الغرفة. أكملت العجوز كلامها قائلة: يجب عليكِ أن تفعلي شيئًا لم تفعله الزوجة الأولى وكان سبب هلاكها، وهلاك ابنتها من قبلها. يجب إيقافه، لم يفُت الأوان بعد، يجب عليكم أن تفعلوا شيئًا ما. حدّقتُ فيها ولم أفهم شيئًا مما قالته فسألتها..

ـ ما هذا الذي يجب إيقافه؟ وأي زوجة تلك التي تتحدثين عنها؟ وما دخلي أنا في كل ذلك؟

ـ الموضوع برُمته يتعلق بكِ الآن وبطفلتكِ "وقد كانت أنجبت طفلة جميلة".

- هذا المصير يتكرر ثانية أين طفلتك الآن؟ سألتني باهتمام.

ـ إنها نائمة في الغرفة الأخرى مع أخيها.

ـ أخوها؟ تقصدين قاتلها؟

بدأ الرعب يدخل إلى أعماق نفسي وما زالت المرأة تتكلم بالهدوء والسكينة ذاتها..

ـ ماذا تقولين أيتها العجوز؟ صرختُ خائفة.

ـ ما أقوله هو ما سيحدث إن لم نمنعه بأسرع ما يمكن، أخبريني أين ابنتك الآن؟

أخافتني الطريقة التي أعادت بها سؤالها ومع ذلك أجبتها بثقة وتأكيد: قلتُ لكِ أنها في الغرفة الأخرى مع أخيها نائمين..

ـ إنها مع أخيها نعم ولكنهما ليسا في الغرفة الأخرى، تعالي إلى هنا وانظري من هذه النافذة وسترين أين هما وما سيحصل. اقتربت من النافذة التي ظهرت فجأة ونظرت إلى الخارج. كان هناك بستان جميل ملئ بالأشجار المثمرة المتنوعة، وبالأزهار الملونة، وكانت تصلني رائحة عطرها الذكي إلى حيث أقف، وسمعتُ تغريد عصافير، وضحكات أطفال صغار.

لستُ أراهما. قلتُ لها وعيناي تجولان فوق الجمال المتناثر هنا وهناك.

ابحثي جيدًا.. طلبت العجوز بحزم.

تابعت أصوات الضحكات، شاهدت مجموعة من الفتيات الصغيرات يلعبن وكانت ابنتي أمل تلعب معهن وهي سعيدة جدًا.

وفجأة أطبق الصمت لفترة وجيزة ثم تحوّل الضحك إلى بكاء ونحيب، لأن حنظل كان قد أخذ الصغيرة من بينهن وهن يبكين ويصرخن، وعندما حاولت أمل منعه ضربها بشدة وظلت تصرخ وتقول له: ألا يكفي ما فعلته بي! اتركها اتركها. ولكنه لم يأبه بها ولا بتوسلاتها بل قال لها: سيكون لكم جميعًا نفس المصير.

حمل الفتاة إلى وسط البستان حيث يوجد بئر هناك. رمى الفتاة في البئر وعاد منتشيًا سعيدًا.

خرجتُ مسرعة وسألته: أين أختك؟ ماذا فعلت بها؟

ـ إنها في مكان آمن، نائمة هناك. أجابني وكان على فمه ابتسامة خبيثة..

ـ ردت العجوز: نعم إنها نائمة ولكنه نوم أبدي لقد فعلها ثانية ذلك الشيطان. لقد قتلها.
ذهبتُ مسرعةً إلى البئر. وهناك كانت العجوز وكانت هناك نساء وفتيات يتحلقن حوله، ورأيت بين النساء امرأة تُشبهني جدًا.
اقتربت مني العجوز وسألتني: هل تعرفين هذه المرأة؟
. قلتُ لها وأنا أنظر بدهشة وكأني أنظر في مرآة ربما هذه أنا!
ـ قالت بل هي قدرك ما لم تفعلي شيئًا..
وقفتُ أرقب العجوز وهي تقترب من البئر حتى وصلت إلى حافته، اقتربت الأخريات، نزلت العجوز في البئر كمن ينزل على سلم أو ما شابه. ثم بعد لحظات عادت وهي تحمل بين يديها أمل الصغيرة، ثم بدأت ترتفع في الهواء، وكأن بساطًا لا مرئي يحملها. وكانت النساء والفتيات متحلقات حولها.
التفتُ إلى المرأة التي تُشبهني وأمل الصغيرة وصاروا يلوحون لي بأيديهم ثم قالت الشبيهة: لا تخافي سنعتني بها. وقالت أمل إنها أختي الحبيبة وسنلعب سوية.
ومن بين أحضان العجوز كانت أملي تُلوّح لي بيديها بإشارة وداع.
حاولت اللحاق بهن ولكني لم أستطع الحركة. حاولت الكلام ولكني صوت كان قد اختفى أيضًا فما صدر سوى الصمت.
عدتُ إلى المنزل. فتحتُ غرفة الصغار، وهناك رأيتُ الطفلين نائمين وعلى فم حنظل تلك الابتسامة الخبيثة. وكانت أمل على السرير الثاني فاقدة الحياة.
قالت العجوز التي ظهرت فجأة: انظري إلى تلك الابتسامة. سيقتلكم جميعًا.
ثم اختفت ثانية، وبقيت كلماتها تتردد في الخلاء..
سيقتلكم جميعًا. سيقتلكم جميعًا.
ـ إنه مجرد حلم. قال الزوج..

ـ نعم ولكنه حلم مزعج ومخيف.

ـ كيف تشعرين الآن؟

ـ بخير.

ـ يجب أن تهتمي وتعتني بنفسكِ أكثر، من أجلنا، ولا تنسي أنكِ ستستقبلين طفلًا آخر

عما قريب.

ـ وكيف أنسى وهو يتحرك في داخلي ويُشعرني بذلك! قالتها بابتسام.

ـ إذًا فلنهيئ أنفسنا لاستقبال ولد شقي.

ـ ربما.

المخلص

سمع مكين خشخشة بين الشجيرات وعندما نظر حوله رأى ذئبًا ضخمًا يُراقبه.

وقد هيّأ نفسه للانقضاض عليه، واعدًا نفسه بوجبة دسمة وشهية. نظر كل منهما في عيني الآخر. شعر الذئب بشيء من الانقباض فهي المرة الأولى التي يُشاهد فيها مثل هذه النظرة الواثقة في عينيّ إنسان من هذا الدخيل الذي تجرّأ علينا. وها هو يقف بلا احترام أو خوف أمامي. ينظر إليّ بوقاحة. قال الذئب لنفسه..

إني أبحثُ عنك أيها الذئب، أيها الصديق القديم. كان مكين يرى صورة صديقه ابن المرأة في الذئب..

- هل ما زلت تذكرني؟ ألا تعرفني؟ أنا من جاء ليُخلص البشر من شروركم..

- كم تبدو واثقًا من نفسك؟ قال الذئب هازئًا. ولكنك مخطئ جدًا. وهذه هي المرة الأخيرة التي سترى فيها عيناك النور.

هجم الذئب بضراوة قاصدًا عنق مكين ولكن الضربة التي تلقاها من عصا مكين كانت كافية لطرحه أرضًا زاعقًا من الألم. ولكنه عاد واستجمع قواه وهجم ثانية بضراوة وقوة تفوق المرة الأولى وقد أججها الحقد والألم، ولكن الضربة الثانية التي تلقّاها كانت أشد وأعتى. أردته الضربة أرضًا غير قادر على تحريك أي من أعضائه سوى عينين تقدحان شررًا.

كانت تلك العينان تراقبان مكين وهو يقترب من الذئب الذي حاول الفرار ولكن بدون جدوى فلم تُطاوعه أي من أطرافه.

شعر الذئب بذلك الشعور الذي كانت ضحاياه تشعر به وفهم الآن معنى تلك النظرة المتوسلة الذليلة التي كان يراها في عيونهم.

كان يحس بنشوة عظيمة تتملكه بعد كل صيد. وها هو الآن يرى نشوة صياده.

اقترب مكين من الذئب. أمسكه من ذيله وبدأ يجره خارج مملكته باتجاه المرج.

كان الذئب يتلوى من الألم. امتلأ جسمه بالأشواك. وكان رأسه يصطدم بالصخور والشجيرات ليوقظه كلما حاول النوم محدثة جروحًا فوق جروحه.

أغمض الذئب عينيه وبدأ يتذكر ماضيه المشرق وأيامه الجميلة. أراد أن يحلم بأن ما يحدث له الآن هو مجرد حلم مزعج سيفيق منه ليضحك ملء شدقيه وليملأ الدنيا عواءً ورعبًا.

ربط مكين الذئب بحبل كان قد أحضره معه لهذا السبب. لفّه حول عنقه بقوة وبعد ذلك لفّه حول غصنٍ قوي من أغصان الشجرة الكبيرة المُطلّة على المرج، رفعه عن الأرض..

نظر مكين في العينين اللتين اتسعتا. ربط الحبل بقوة. وداعًا أيها الذئب.

عاد الذئب إلى حلمه الذي لن ينتهي وكانت الريح تعزف له موسيقى الوداع.

عاد مكين إلى المنزل وقد أعلنت نجمة الصبح اقتراب النهار. ولج المنزل بكل هدوء لكي لا يُوقظ الشيخ أو زوجته. نظّف يديه جيدًا ثم دخل لينام.

عندما سمع الشيخ وقع أقدام مكين الخجولة وعرف أنه عاد سالمًا استطاع أن ينام.

****

استيقظت القرية متوجسة من منظرالرجل الذئب المعلق على الشجرة الكبيرة في طرف الغابة وكانوا قد شاهدوا مسبقًا ذئبًا حارسًا عجوزًا ميتًا ولكنه كان موتًا طبيعيًا. حينها أقاموا له الطقوس ودفنوه في مقبرة الأبرار.
ولكن الأمر الآن مختلف تمامًا ويُنذر بكارثة قادمة. فالذئاب هم حراس الغابة المقدسة التي تفضي إلى المنطقة المحرّمة في أعلى التل الذي تسكنه الآلهة. فالذئاب إذًا تُمثّل الآلهة. والذي تجرأ عليها سيُعرّض نفسه لسخط الآلهة وغضبهم.
كثرت التخمينات وبدأ الناس كعادتهم يختلقون الأحاديث وينسبونها إلى آخرين كلما حزمهم أمر ولم يجدوا له تفسيرًا واضحًا.
ولكن شخصًا آخر استيقظ نشيطًا جدًا وسعيدًا على الرغم من الحدث السئ، إنه مكين الذي استيقظ أبكر من عادته وتهيأ للخروج بالقطيع.
كان الشيخ يجلس على مصطبة أمام البيت يراقب مكين مغالبًا رغبة ملحة في سؤاله عما حدث معه البارحة، انتصرت الرغبة في المعرفة أخيرًا..
ـ تعال واشرب كأسًا من الشاي قبل أن تذهب.
ـ حسنًا.
ـ ما الذي حدث البارحة؟!
وضع غريب يده على رأسه في محاولة لتذكر شيء غير عادي ولكنه لم يُفلح.
ـ البارحة؟ ذهبتُ للنوم مبكرًا.
ـ ضحك الشيخ وقال: هل رأيت أية أحلام غريبة؟
ـ نعم رأيت نفسي أقتل ذئبًا.
ـ وهل ستنام مبكرًا هذه الليلة أيضًا؟
ـ أعتقد ذلك.

ـ وستحلم أيضًا؟

ـ أتمنى ذلك. فقد أحببتُ ذلك الحلم.

دخلت نزهة مبتسمة وهي ترى مكين يقطر صحةً ونشاطًا وجمالًا..

يجب أن تُسرع في إنهاء أعمالك التي لا أدري ما هي ولا أجد لها مبررًا..

لن يطول الأمر كثيرًا.. قالها مكين وهو غير متأكد من هذا الأمر متمنيًا ذلك، ولكن الأمر قد يطول ويطول وقد يفشل في إنهائه.

لقد اخترتُ لك عروسًا مميزة. يجب أن تراها. قالت نزهة بزهو.

ـ أما اتفقنا أن الوقت مبكر على ذلك؟

ـ لم أقل لك تزوجها الآن. قلتُ يجب أن تراها. أنا متاكدة من أنها ستعجبك جدًا وستحبها فهي فتاة مهذبة وجميلة جدًا ولا يوجد من تُضاهيها لا في هذه القرية ولا القرى المجاورة ليس عندي شك في حسن اختيارك.

أمسكه الشيخ من ذراعه وهمس له: كن حذرًا..

ـ سأفعل.

ـ ستزورنا غدًا، هيئ نفسك. قالت نزهة.

ـ سأفعل.

****

خرج القطيع متكاسلًا فقد أخرجه مكين قبل موعده المعتاد. فقد كان لديه رغبة عارمة في إلقاء نظرة أخرى على الذئب المعلّق، وراغبًا في انصرام الوقت سريعًا ليُكمل عملًا ما بدأه البارحة.

كان يُغني أغنية قديمة تقليدية عن صراع الخير والشر وانتصار الخير في النهاية،

وتذكّر تلك الدعوات والابتهالات التي تُخاطب الآلهة لتُنجز الأعمال عن الناس وهم نائمون.

ضحك من هذه الفكرة الغبية بأن الكلام سيُحرك قوى خفية وآلهة لتُعيد الحق إلى إنسان متواكل خنوع. فما هكذا ينتصر الخير والحق.

أي غباء وأي بلاهة هذه. إنها مؤامرة. لقد ابتكر المستغلون الظلمة هذه الفكرة وغزو بها العقول المهيأة لاستقبال الخرافة والسحر والدجل. وبهذا قعدوا عن العمل منتظرين القوى الخفية التي لن تاتي أبدًا، فلا حقّ يعود بالتمني، ولا خير يُحافظ عليه بالكلام ولا سلم يأتي بالاستسلام.

يجب أن نعمل ونكدح ونناضل من أجل هذه الأشياء الثمينة. يجب أن ننهض وعندها ستظهر تلك القوة التي في داخلنا لتنهض معنا. وتفعل فعلها السحري.

هذه الذئاب البشرية تسرق قطيعنا، رجالنا أطفالنا ونساءنا وتشرب من دمنا ونحن ما زلنا نباركها ونحتفي بها، ثم وبغباء نطلب من الآلهة التي تقف وراءها أن تُنجدنا منها وتُوقفها عند حد قبول الطاعة والذل والرأفة بنا والقبول بأضاحٍ حيوانية فقط

دون مساس بالبشر. ولكن الآلهة تصم الأذن عن هذا النداء.

لماذا؟ لأن هذا الأمر هو محضُ خيال، ليس هنا آلهة كتلك التي يوهموننا بوجودها وما تلك الذئاب سوى حيوانات متوحشة استشعرت ضعفًا فاستشرست واستشعرت هوانا فتظلمت.

إنها البداية، سنعمل بجد وصدق وعندها لا بد للحق والخير أن ينتصرا.

تعمّد سلوك الطريق الجنوبي. وهناك وعلى الشجرة الكبيرة ما زالت الريح تؤرجح الحارس النائم.

عندما أصبح مكين بجانب الشجرة فتح الذئب عينيه لبرهة قصيرة. نظر إلى مكين نظرة بؤس وذل ثم عاد إلى حلمه.

إنها البداية.. سأعلقكم جميعًا على هذه الشجرة. ستكون مقبرتكم. قال مكين..

تفرّق القطيع هنا وهناك فمنه من استلقى ليعوض ما فاته من نوم بسبب النهوض المبكر أو بسبب الكسل الذي يُثيره توفّر الحشائش الوفيرة التي تُبللها قطرات الندى. فليس هناك أي الحاجة للتجول كثيرًا للبحث عن الطعام.

أخذ صغار القطيع يلعبون والشمس تُلقي عليهم أولى خيوطها الذهبية.

نظر مكين إلى صغار القطيع وفكّر كم هم سعداء!

لماذا لا يكون الكون مليئًا بالحب، لماذا لا يكون عدلًا ومساواة ورحمة في القلوب جميعها؟

لماذا على أناس أن تعمل وتكِد وتشقى لتُقدّم في النهاية ثمرة عملها وحياتها لشخصٍ آخر.

يُمضي وقته في اللهو والعربدة وارتكاب الموبقات؟

وما ذنب هذه الحيوانات المسكينة الوادعة لتهرق دماءها من أجل المجهول.

ـ نحن خدمة الآلهة وممثلوها. قال صوت من الفراغ.

ـ أية آلهة تلك التي تتحدثون عنها والتي ترى في أخلص الناس لها ألد أعدائها؟

ـ من قال أنهم أعداؤنا؟ على العكس نحن نحبهم ولهذا نقوم بتعليمهم وتوجيههم ورعايتهم ليكونوا خير خدم لخير سيد.

ـ وأين الخير في أن يكون المرء عبدًا لشخص آخر؟

ـ الآلهة ليست أشخاصًا وهذا ناموسهم الذي نحرص نحن على تطبيقه.

ـ وهذا ما ينص عليه ناموس الآلهة. شعب خنوع جاهل أعمى؟ رفض مكين.

ـ ولم لا تقول شعبًا قنوعًا مطيعًا راضيًا؟

ـ وجهان لعملة واحدة.

ـ لقد أخطات بحق نفسك وآلهتك ومصيرك الجحيم، وهذا شأنك وحدك. فلماذا لا تدع

هؤلاء الناس الطيبين يهنأون بحياتهم طالما هم مقتنعون وراضون. قال الصوت.

ـ تقصد أن أدعهم نيامًا عميانًا، فلا أوقظهم أو أُنير لهم دربًا أظلمتموها. لأنهم حينها سيدركون الحقيقة وتنزاح تلك الغمامة التي عملتم جاهدين على استمرار وجودها وعندها سوف

يقذفون بكم بعيدًا. ولهذا فإن أولى مهامكم وأولوياتكم هي التخلص من كل من تستشعرون فيه خطرًا. كل من أعمل عقله وفِكره. كل من يطرح أسئلة منطقية ويبحث عن إجابات واضحة لها، غير تلك الإجابات الجاهزة التي تُصدرونها لهم معلّبة محفوظة.

ـ إنك خائن خَطر، تُثير المشاكل وتتدخل فيما لا يعنيك. وهذا سيقودك إلى نهايتك.

لا تظن بأننا سنقف مكتوفي الأيدي ونحن نراك تُحاول زعزعة الأرض من تحتنا وهدم قصورنا ومكانتنا التي عملنا لها منذ الأزل. قرقع الصوت وملأ المكان..

ـ حاولتم سابقًا وفشلتم. وأعرف أنكم ستكررون المحاولة مجددًا. قال مكين.

ـ لقد أصبحت مغرورًا بنصرك الهزيل المتواضع. ألا تذكر أنك أنت من قال إنها البداية. البداية فقط. ربحت جولة، جولة صغيرة. ولكن الحرب الكبرى لم تبدأ بعد. وسوف ترى كيف

سيقضي عليك أولئك الناس أنفسهم. هؤلاء الذين تحاول الدفاع عنهم ومساعدتهم. إنك

مخطئ جدًا في نظرتك إليهم. فهؤلاء الناس الذين تعودوا على الخنوع والسكينة والذل، لن يكونوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم والعيش بحرية يومًا. نحن أدرى منك بذلك.. أكّد الصوت جازمًا.

ـ أنتم من زرع هذه الفكرة الحمقاء في عقولهم. وأنتم مخطئون جدًا في ذلك فكل إنسان

يهفو إلى الحرية والسلام والطمأنينة. رد مكين بقرف..

ـ السلام والطمأنينة والرضا فيما نقول لهم ونفعل من أجلهم، وفي وجودنا الدائم كرعاة

وموجهين لهم. وكما أنت تقود قطيعك وترعاه، فنحن نفعل ذلك معهم، وسسيضيعون من

دوننا.

ـ قال مكين بحماس: سنجعلهم يفتحون أعينهم ونريهم الدرب، وليقرروا بعدها مصيرهم بأنفسهم.

ـ لن يحسنوا الخيار.

ـ بل سيفعلوا.

موت

حدثت الولادة بسهولة ونجاح، وبعض الألم الاعتيادي فلا يوجد ولادة بلا ألم ولكنه كان ألمًا

محتملًا ضعيفًا. كان المولود فتاة جميلة.

سنسميها أمل. قال سعيد، إنها تشبهها كثيرًا.

استعاد سعيد لحظة ولادة ابنته الأولى وكأنها حدثت الآن، كانت زوجته تبدو بحالة جيدة

جدًا رغم شحوبها الناجم عن الولادة، وكانت المولودة جميلة جدًا أيضًا.

قالت له زوجته: هل انتقيت لها اسمًا؟

هل نسيت أننا انتقينا الاسم سوية، إذا كان المولود بنتًا أسميناها أمل وإذا كان ولدًا أسميناه عادل

ولكن بعد موتها غير الاسم إلى حنظل وأطلقه على الصبي.

لا لم أنسَ، ولكن قلت ربما تكون قد غيّرت الاسم.

لا فهذا اسمي المفضل أمل وهي الأمل والجمال..

تذكر ذلك وكأنه الآن..

أججت هذه الذكرى في نفسه نغمة حسرة ألم وحزن، ولكن ما كان يُخفف عنه هو

أن الله قد عوّضه بزوجة وطفلة رائعتين، وها هي زوجته وقد تخطّت ولادتها بيُسر وسهولة.

لو لم أكن متأكدًا من أن الزمن لا يعود إلى الوراء لقلتُ أن هذه هي ابنتي المرحومة نفسها وهذا يوم ولادتها، وكأنني ركبتُ آلة الزمن وسافرت بها إلى ذلك اليوم ولكنه القدر قاسٍ حينًا ورحيم حينًا آخر.

كانت زوجته تحس بفرحة عارمة وهي تراه ممسكًا بالطفلة ومحلقًا في سماوات لا تعرفها ولكن هناك علامات واضحة من السعادة والغبطة على مُحيّاه، وهذا كان كافيًا لها فهي لا تريد أكثر من ذلك..

الحمد لله، كل شيء على ما يرام. كنتُ خائفًا جدًا عليكِ.

وعلى الطفلة؟ أردفت سلمى.

أنتِ أولًا فلا أريد أن أفقدك، يكفيني..

فرت دمعة هاربة من بين جفنيه وغصة منعته من إكمال جملته..

- لماذا تبكي الآن؟ سألته.
- إنها دموع الفرح.

كانت سلمى خائفة هي أيضًا فقد كانت تعلم بأن الزوجة الأولى قد ماتت وهي تلد طفلها. ثم أنها رأت ذلك الحلم المُخيف ثانيةً.

رأت العجوز تُحذّرها بإصرار من الطفل وتُكرر بأنه بذرة شيطانية، سيقضي عليهم جميعًا ولكن كل سوء قد مضى الآن، فقد كان ذلك من جراء إرهاق الحمل وتعبه

لقد انتهى كل شيء الآن. الجميع بخير وها هي البسمة تعود إلى ثغر زوجها ثانيةً..

لم تستطع منع نفسها من البكاء..

- لماذا تبكين؟
- إنها دموع الفرح.

لم يذكر أي منهما الطفل، ولم تسأل عنه سلمى فقد كانت تُريد أن تستأثر بهذه اللحظات مع عائلتها الخاصة فقط. شعرت بشيء من الندم ولكنها أزاحته فورًا وبجانب النافذة وقفت عجوز تنظر وتستمع باهتمام إلى شيء ما.

عادت سلمى إلى المنزل ولم يمضِ وقت طويل حتى استرجعت قوتها وأصبحت أكثر صحة وجمالًا من قبل. وكانت مخاوفها من حنظل قد اختفت تمامًا.
كانت تكره هذا الاسم حنظل، وطلبت من والده أن يغيره ويعيده إلى عادل ولكنه أبى وقال هذا اسم يناسبه جدًا. كانت تعامله كطفلها. حرضتها عاطفة الأمومة، وحزنت عليه كثيرًا. لقد فقد أمه بعد فترة قصيرة من ولادته وها هو أبوه يتحاشاه بشكل كلي، وهكذا بدأت تحيطه برعاية الأم والأب.
كان مطيعًا جدًا وهادئًا. وكانت تلحظ بين الحين والآخر ما يشبه ابتسامة خبيثة ترتسم على ثغره كمثل التي رأتها في منامها.
كانت تلوم نفسها كثيرًا على هذه الرؤى قائلة: ما زلت متأثرة بذلك المنام الغريب..
كل شيء على خير مايرام.
مضى عامان والأسرة تعيش عيشة هانئة هادئة سعيدة لا يُعكّر صفوها كدر.
ولكن ذلك لم يكن كافيًا ليجعل الأب يحنو على ولده أو يقترب منه أو يحتضنه ولو لمرة واحدة. كان يلوم نفسه كثيرًا ويتساءل: لماذا؟ ومن أين لي كل هذه القسوة؟ ولكني لا أقدر.. هناك قوة ما تدفعني بعيدًا كلما حاولتُ الاقتراب منه وكأننا قطبي مغناطيس لا يمكن اللقاء بينهما بل كلما نقصت المسافة بينهما كلما ازداد تنافرهما.

ولكن سلمى تعتني به جيدًا. تعوّضه عن كل ما يفقده، قال ذلك ليُزيح العبء والإحساس بالذنب عن كاهله.

إنها هدية من السماء لي وله.

كان حنظل يحس بنفور أبيه منه ولكنه لم يكن يبالي، فمنذ صغره وهو يحس باستقلالية تامة عن الجميع. لم يبكِ أبدًا. مهما كان السبب، ولم يكن يحنّ إلى حضن أو رفقة، كان يحب الوحدة ويستمتع بها كثيرًا.

كانت تلك الصفات التي يتحلى بها حنظل قد ساعدت كثيرًا في تقبّل سلمى له بسرعة ورضيلم يكن ولدًا مزعجًا أو صعب المراس، وهكذا كان كل شيء هادئًا وجميلًا.

غدًا عيد ميلادك يا أميرتي الصغيرة، قالت سلمى وهي تُداعب أمل الصغيرة: سنُقيم لكِ احتفالًا كبيرًا. وسوف نُكرر هذا في كل عام حتى أراكِ وقد أصبحتِ شابة جميلة تخطفين قلوب الشبان، وتجذبين الفتيات أيضًا.

كان حنظل يجلس بقربهما يستمع إلى كلمات الأم. فجأة نظرت إليه سلمى ورأت تلك الابتسامة الخبيثة على ثغره، أحسّت بالذعر والتوتر فقالت له بحدة غير مقصودة:

- حنظل.. اذهب والعب في الخارج.

وبكل هدوء وطاعة نهض حنظل وخرج.

لقد قسوت ثانية، ولكن تلك الابتسامة تُخيفني جدًا. أتراه يحس بالغيرة أو الظلم لتمييزنا أخته عنه؟

فهو يتقبّل كل تجاهل والده له برضى وها هي المسألة تتكرر معي أيضًا..

لمَ لا يصرخ مستنكرًا؟ لمَ لا يبكي؟

أظنه حزينًا الآن فلم يحدث أن احتفلنا مرة بعيد ميلاده. ولكن الذنب ليس ذنبي، فكم من مرة طالبت والده بذلك ولكنه رفض رفضًا شديدًا. لأن ذكرى ميلاد الطفل يُذكّره برحيل زوجته، فيحمله مسؤولية ذلك. كان يبكي ويصرخ بشدة: لا أستطيع لا أستطيع.

****

كانت سلمى تُلاعب الطفلة عندما دخلت العجوز وجلست بجانبها ثم بدأت تتكلم مستأنفة حديث سابق:

هل ما زلتِ تذكرين؟ ربما لا؟ تعتقدين أن الأمر قد انتهى وأن كل شيء على ما يرام؟ أنتِ مخطئة يا عزيزتي. فما زلنا في البداية. وما هذا الهدوء الذي ترينه الآن إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة المدمرة. لم تستمعي إليّ في السابق وأعرف أنك لن تستمعي الآن. ولكن واجبي أن أُحذّرك.

- ما الذي تريدينه منا؟ دعينا وشأننا، دعينا نعيش بسلام.. صرخت سلمى.

- أي سلام هذا وأنتِ وسط النار؟ لستُ أنا من يُهدد سلامتكِ وإنما هو.

- بل أنتِ.. إنه ولد صغير لا حول له ولا قوة. دعيه وشأنه.

-تظنين ذلك، مخطئة أنتِ كثيرًا وسيجيئك يوم وتندمين لأنك لم تستمعي إليّ وهذا اليوم ليس بالبعيد. غدًا سوف تحتفلين بعيد ميلاد ابنتك ولكنها ستكون المرة الأخيرة التي تفعلين فيها ذلك. عندما قتل أخته الأولى كانت في الثانية أيضًا..

- إنك تخرفين أيتها العجوز. عندما ماتت أخته لم يكن قد وُلد بعد.

-ولكن قواه الشريرة كانت قد وُلدت. قالت العجوز.

تعالي وانظري إلى ابنتك وهي تلعب.

أسرعت سلمى إلى النافذة وأغلقتها. لا أريد أن أرى شيئًا. ولا أريد أن أراكِ أنتِ أيضًا. إنكِ تُحطّمين حياتي وتعذبينني بتوهماتك. أرجوكِ اخرجي ولا تعودي إلى هنا أبدًا أرجوكِ.

. سأخرج. قالت العجوز: ولكني سأعود، لا بد لي من العودة، فهذه وظيفتي، أن أفضح الشيطان وأحذر منه. وغالبًا ما تدار لي الأذن الصماء ولكني سأبقى أحاول. إنه قدري وقدركم أنتم أيضًا.

فتحت العجوز الباب للخروج. وهناك رأت سلمى حنظل يشق طريقه بين الفتيات ويخطف أمل الصغيرة ويتجه صوب البئر:

لا.. لا ترمها أرجوك.

أغلقت العجوز الباب في وجهها.

استيقظت سلمى مرعوبة..

هل عاد لكِ الحلم؟ سأل سعيد.

- نعم مر زمن طويل، لمَ الآن؟

- لا بد أنكِ أجهدتِ نفسكِ بالتحضيرات للحفل.

- ربما.

عودي للنوم.

جلس سعيد يفكر بسر هذا الحلم الذي يتكرربهذا الإلحاح الشديد. لماذا يتكرر؟ ومن هي هذه العجوز؟ ولماذا تأتي؟ وإلامَ تدل هذه الرؤية؟

لقد ذكرت زوجتي الأولى العجوز مرتين. وكان يتلو ذلك حدثًا مرعبًا مؤلمًا في المرة الأولى ماتت أمل. وفي المرة الثانية مات الأمل بموت أمها.

هل تلك المرأة هي ملاك الموت؟ لا ملاك الموت ذكر. كل الملائكة ذكور

ربما هي الشيطان، ولكن الشيطان ذكر أيضًا. ولكنه قد يأتي بشكل امرأة أحيانًا ليغوينا. لا يوجد إغواء هنا بل موت.

هل هي خير أم شر؟ ولماذا تُحذّر دائمًا من الطفل وتتهمه بكل هذا الموت؟

هل من الممكن أن يكون لهذا الطفل علاقة بما حدث ويحدث لنا؟ هل تقمصه الجن أو سكنه الشيطان؟

حرك رأسه بعنف طاردًا تلك الأفكار من رأسه. ما هذه الأفكار الحمقاء التي أُفكّر بها؟ لقد تماديتُ كثيرًا.

ليست أفكارًا حمقاء. إنها حقيقة واقعة قالت العجوز، يجب أن توقفه

كيف أفعل ذلك؟

الموت..

اذهبي أيتها العجوز ويكفي ما فعلتِه بالنسوة. وضع رأسه على الوسادة وأغفى. أطفأت العجوز الأضواء وذهبت.

أتى الصباح رقيقًا جميلًا، قبّل سلمى على عينيها فنهضت باسمة وقد زال كدرها ونسيت حلمها المزعج وكآبتها وكأنها لم تكن.

بدأت تُشعل البيت حيوية ونشاط والفتاة تتبعها من مكانٍ إلى آخر. كانت مشغولة جدًا بالتحضيرات للأحتفال فلم تملك وقتًا للتفكير بشيء آخر. استيقظ الزوج متأخرًا عن موعده. اقترب من زوجته. أراحه منظرها. اقترب وقبّلها قبلة الصباح كم تعشق هذه القُبلة السريعة التي تنتظرها من حينٍ لآخر..

قالت له: إنها المرة الأولى التي تنام فيها إلى هذا الوقت. هل سهرتَ كثيرًا البارحة؟

- قليلًا ولكني كنتُ مرهقًا.

- وكيف أصبحت الآن؟
- بخير. وها أنتِ مشغولة بالتحضيرات. كيف أستطع المساعدة؟
- فقط ابتسم.

قبّلها ثانيةً بفرحٍ ورغبة..

مرّ الوقت سريعًا وها هو المساء بلطف نسماته وجمال سمائه التي تُزيّنها غيوم متفرقة كمثل قطيع أغنام تفرّق هنا وهناك. ومن بين هذا القطيع ظهر القمر الفضي بكل وسامته وجماله وألقى على الكون تحية الحياة.

نظرت سلمى إلى ذلك الوسيم وأحسّت أنه يوشوشها بكلمات غزل وحب. فاحمرّ لونها قليلًا وكان داخل البيت مشتعلًا بالبهجة والأضواء والحركة وكان هناك في الداخل قمر جميل أيضًا.

إنها أمل التي كانت مشغولة وفرحة بالهدايا التي أحضرها المدعوون من جيران وأقارب كان حنظل يجلس في زاوية بعيدة يرقب كل شيء دون أن يقترب أو يشارك.

حاولت سلمى وبعض المدعوين إحضاره للمشاركة والمرح. وكان يُلبي طائعًا حتى إذا ما غفلوا عنه عاد إلى زاويته. وهكذا نسوه بعد أن غاصوا في الرقص والمرح..

استغل حنظل انشغالهم وذهب خارجًا من المنزل ليلهو مع صديقه المفضل الذي كان ينظر إليه من النافذة نظرة نداء. كان سعيد قد خرج لإحضار بعض الأشياء. وعندما عاد رأى حنظل يلعب مع القط بسعادة. أحس بقشعريرة تسري في جسده كله، فقد كانت ملامحه مخيفة. وأحس كأن هناك شبه ما بين ابنه وذلك القط الذي يلهو معه.

نظر حنظل إليه نظرة لا مبالاة ثم عاد إلى قِطه.

دخل سعيد البيت وكان قد قرر وضع حدٍّ لولده وتحذيره من إحضار تلك القطط السوداء المشؤومة إلى المنزل أو اللعب معها، وقد أجّل ذلك حتى وقتٍ آخر فهو لا يريد إفساد الاحتفال.

نامت الطفلة قبل أن ينتهي الاحتفال فقد أُجهدت من الحركة وتناول الطعام واللعب.

ساعدت بعض النسوة سلمى في لملمة الفوضى التي سببها الصغار والكبار أيضًا، تمنى لهم الضيوف ليلة سعيدة وذهبوا.

كانت ليلة جميلة جدًا، قال الزوج وهي تستلقي على السرير بجانب زوجها: وأنتِ كنتِ جميلة جدًا. كنتِ أجمل من الجميع، وكنجمة ساطعة كنت تشعين بهاءً وسحرًا.

قالت سلمى بدلال: ما هذا الغزل الجميل، إذا كان الاحتفال قد جعلك تبوح بكل هذه المشاعرالرقيقة والكلام الجميل فسأقوم بعمل احتفال بين الحين والآخر.

وهناك أشياء أخرى يجب أن نقوم بها بين الحين والآخر. قال سعيد ويداه تداعبان الثديين المتأهبين ثم لتنزلقا نزولًا إلى البئر الوردي وقد نضح ماؤه.

هل اشتقت إليّ؟ قالت سلمى بإثارة ممزوجة بالرغبة.

- نعم كثيرًا وأنتِ؟

وكانت الإجابة قُبلة عميقة وثم ذابا في عناق لذيذ ومحموم.

وفي الغرفة المجاورة كان الولد يلهو مع قِطه، وكانت تصله بين الحين والآخر أصوات الحب.

أغفى الزوجان بعد إشباع رغبتيهما وإخمادها.

هل استمتعتِ؟ قالت العجوز لسلمى التي احمر وجهها من الخجل.

- إنه ليس وقت الخجل، بل وقت الندب.

أمسكت العجوز سلمى من يدها وجرتها باتجاه الباب.

وكان سعيد يراقب زوجته دون أن تُلاحظ ذلك. انتظر عودتها ليبوح لها بشيء ما ولكن غيابها طال كثيرًا.

ليس هنالك صوت ولا حركة، أقلقه ذلك الهدوء فنهض متثاقلًا ليرى ما الذي أخّرها، ناداها بما يُشبه الهمس فأجابت بالصمت، رفع وتيرة صوته ونادى ثانية وكان الجواب ذاته.

هبّ إلى غرفة الأولاد فقد عرف أنها هناك، فتح الباب ليراها ممددة على الأرض فاقدة الوعي. وكان قط أسود يخرج من النافذة.

حمل سعيد سلمى وأعادها إلى السرير وهي تهذي بكلمات فهم بعضها فقد كانت تطلب من العجوز مساعدة طفلتها، نظر إلى الطفلة فرأى آثار قئ مشوب بالدماء.

أتى الطبيب وأعطى سلمى إبرة مهدئة، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا للفتاة لأنها كانت قد فارقت الحياة.

قال الطبيب موبخًا: إنها أعراض تسمم شديد. كيف لم تلاحظوا ذلك؟ ألم تتوجع أو تبكي؟

- كان عيد ميلادها الثاني. كانت فرحة جدًا، لعبت كثيرًا، وأكلت بمرح ثم غفت بسلام.

تكلم سعيد بما يُشبه الهمس وكأنه يُكلّم نفسه، ثم أردف لم أعد أذكر هل كانت الحفلة للاحتفال بقدومها أم لوداعها. ثم تذكرفجأة القط الأسود الذي خرج من النافذة عندما فتح الباب أو هذا ما ظن أنه شاهده. فهب مسرعًا إلى الطفل النائم في سريره، فرأى على فمه الابتسامة الخبيثة المخيفة.

أطبق على عنقة بكلتا يديه يريد قتله وهو يصيح بألم وأسى: أيها الولد المشؤوم!

ألا يكفي؟ لماذا قتلتها؟

أمسك الطبيب وأحد الجيران الذي استقطبه الصراخ والبكاء سعيدًا وأخذاه إلى الغرفة الأخرى ووضعاه بجانب زوجته فاقدًا الوعي أيضًا..

كانت هناك هالة حمراء حول عنق الصبي. ولكن ما أثار دهشتهم كثيرًا أن الابتسامة لم تُفارق ثغره.

ورد

لقد فعلتها.. صرخ الشابان ببهجة. لم نكن نتوقع ذلك بهذه السرعة. قال سالم. حتى أنك لم تخبرنا بذلك البارحة عندما كنا سواسية. كان لديك حديث هام مع نزهة ولم نتوقع خروجك ثانية.

ـ كان عملًا رائعًا. لا أستطيع أن أصف سعاددتي عندما سمعتُ بالحدث. قال سليم.

وأما تعليقك الذئب الحارس على الشجرة الكبيرة فقد كان له تأثير كبير على سكان القرية بلا استثناء.

كيف خطرت لكِ هذه الفكرة العظيمة؟ قال سالم مبديًا إعجابه الشديد بالفكرة. فعندما شوهد الذئب ونقل الخبر. ولم أعرف بالضبطمن أول من شاهد الذئب المعلق ولكنه عاد وأيقظ القرية وأشعلها خوفًا وترقبًا.

اتفق الجميع على أن هناك خطبًا كبيرًا يجب أن يتهيؤوا له. لقد غضبت الآلهة ويجب أن نتهيأ لدفع الثمن غاليًا.

وكان الناس يتساءلون عن الدافع لمثل هذه التحذيرات..

- لقد مات أحد حراس الغابة المقدسة.

- وما دخلنا بالموضوع؟

- لقد قتل.

صرخ الجميع بدهشة وذعر: قتل، غير معقول. لا بد أنك تتوهم . من الذي يقدر أو حتى يتجرأ على حراس الغابة المقدسة وخدم الآلهة؟

وليس هذا فحسب بل لقد علق على الشجرة الكبيرة وما زال هناك تتلاعب به الرياح اختلط كلام الناس بعضه ببعض، فمنهم من كذب الموضوع نهائيًا، ودخل بيته معتبرًا أنه لم يسمع شيئًا. ومنهم من اتهم الناقل بأن ذلك رؤى من خياله. ومنهم من خرّ مغشيًا من الخوف. قال أحدهم: ربما كان المعلق على الشجرة عدوًا حاول دخول حرمة الغابة فقبض عليه حراسها وعلقوه هناك عبرة لغيره.

- أقسم بالآلهة إنه واحد منهم. أكد الرائي.

- يجب أن نذهب لنتأكد من الأمر وويلك لو كان الأمر كذبًا. وكان الجميع يتمنون ذلك.

يا ويلنا إذا كان الكلام صحيحًا فالعاقبة وخيمة.

ذهب الحشد وكلهم أمل أن يكون المعلق دخيلًا غريبًا. ولا مانع لديهم إذا كان أحد أبناء القرية الذين اخترقوا المحظور واقتربوا من الغابة. أيًا يكن إلا أن يكون أحد أولئك المقدسين، حراس الغابة المقدسة.

كان هناك فوضى دينية إيمانية عارمة. كل واحد يُردد أدعيته الخاصة ويناجي إلهه ناشدًا الخلاص.

اختلطت الأدعية بالبكاء بأسماء الآلهة على اختلافها. ولكنهم اشتركوا جميعًا على شيء واحد وهو عدم تحميلهم وزر جريمة لم يرتكبوها. عندما اقتربوا من

الشجرة ورأوا الذئب معلقًا كأحد لعب بيت الدمى تحرّكه الريح كما تشتهي، خروا ساجدين، باكين، شاكين، متوسلين..

يجب أن ننزله وندفنه. اقترح البعض.

وافق الجميع على الفكرة ولكنهم عادوا أدراجهم فرادى. كل يجرجر نفسًا مفعمة بالهم والحزن مثقلة بالخوف والترقّب. ترزح تحت الثقل الجاسم فوق كتفيه ويضغط على قلبه حتى يكاد يوقفه. وبقي الذئب معلقًا على الشجرة.. فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

لماذا؟ سأل مكين.

ـ كانوا يقولون بأنه من المحتمل أن يكون هذا الذئب عاصيًا. وربما عاقبته الآلهة أو خدمتها الذئاب أنفسهم هم من تخلّص منه. وقد علقوه هناك لنرى ثمرة العصيان. وقد وافق الجميع بسرعة على هذه الفكرة. فلقد كانت مناسبة جدًا لهم لأنها تخرجهم من مجال الشك والشبهة والمسؤولية وتبقيهم بعيدين عن أصابع الاتهام وأيادي الانتقام. أجاب سليم.

لا بد أن يكون الأمر على هذه الشاكلة. لأنه ما من أحد يقدر على خدم الآلهة سوى الآلهة أنفسهم. اتفق الجمع.

ولكن أحدهم صرخ: أو ربما هنالك قوة أخرى أقوى من هؤلاء الطغاة وهي تعمل للقضاء عليهم والتخلص منهم.

ـ لقد كان القائل أحدكما. قال مكين.

ـ نعم إنه سالم.

ـ ألم نتفق على الهدوء وعدم التهور أو التسرع في الكلام والفعل؟ قال مكين لائمًا.

ـ لقد كنتُ مثارًا جدًا. كنت أتمنى أن أُعلنها بصراحة ووضوح بأنك أنت المخلص الذي جاء من المجهول لينقذهم. أجاب سالم دون أن يرفع عينيه التي تحملان إحساسًا بالذنب إلى عيني مكين اللائمتين.

ـ حسنًا إنك لم تفعل ذلك. قال مكين بلطف ليُخفف عن سالم. يجب أن تسيطر على مشاعرك وأحاسيسك. وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لحسن الحظ فإن أحدًا من الناس لم يُعر أذنًا لكلامي. ولربما لم يسمعوه في الأصللأنهم كانوا قد بدؤوا يتفرّقون على أصوات صلاة خلاصهم..

ـ ولكن ما يُحيّرني أكثر بأن الشخص الذي أطلق فكرة عصيان الحارس وانتقام الآلهة هو الشيخ مسعود. ولهذا كان للفكرة هذا الدوي وفعلت فعل السحر فيهم. قال سليم والدهشة على وجهه.

ـ لقد فعلها الشيخ.. قال مكين.

ـ إذًا أنتم متفقون على ما حدث؟ أنت تعلم به؟ سأل سليم.

ـ لا. لا أعلم ولكني لستُ متفاجئًا من ذلك. فأنا أعرف الشيخ جيدًا وأعرف كيف يُفكّر فلقد تكلمتُ معه بشأن التطهير وقد بارك الفكرة. ولكنه هو الآخر طالب بالحذر والتّروي.

وقد وعد بالمساعدة من جهته.

ـ وها هو يبدأ ويُشارك بنفس السرعة التي بدأت أنت بها. قال سالم.

بداية جيدة تُبشّر بالنصر. أردف سليم.

على رِسلك إنها بداية وحسب. فعندما يُدرك أولو الأمر أن الحادثة مدبرة. فسيهيؤن عدة الحرب ويشاركون في المعركة التي ستمتد وتمتد. وقد نخرج منها مهزومين أيضًا.

مثلما حدث معي في المرة الأولى في تل البلابل.

ـ كنتُ وحيدًا هناك. أما الآن فنحن معك وهناك الكثيرون مهيئون للانضمام إلينا. قال سليم.

ـ هم الآن الأكثر والأقوى والجميع معهم ولكننا سنعمل بجد ونضع كل قوتنا وعزمنا استعدادًا وتأهبًا للمعركة. فالاستعداد الجيد للحرب هو أولى خطوات النجاح.

ـ ما الموضوع الهام الذي كانت نزهة تريدك من أجله. فقد كنت متوجسًا منه وكأنك كنت تتوقع أمرًا سيئًا؟ سأل سالم ليغير الموضوع فما زال يؤنّب نفسه على تسرّعه.

ـ في الحقيقة كنتُ أتوقع شيئًا ما. وكان الموضوع مختلف تمامًا. قال مكين.

ـ زواج؟

ـ هذا هو. تريد تزويجي. وأعتقد أنها انتقت العروس أيضًا. تريدني أن أرتبط بواحدة لتُريح الآخريات كما تقول.

ـ توقعت ذلك فهذه هي نزهة المرأة الطيبة العطوف التي تُفكّر بالآخرين ومساعدتهم حتى في أحلك الأوقات وأصعبها. قال سليم.

ـ ولكن مكين ليس كالآخرين لقد أصبح ولدًا لها.

ـ لا شك في ذلك. فهو كمثابة أخ لنا أيضًا.

ـ إني أشكركم وأقدر عاليًا هذه المشاعر الطيبة منكم وأتمنى أن أكون عند حسن ظنكم بي.

- إنك كذلك.

ـ لقد حان وقت العودة للبيت.

ـ هيا سنساعدك على جمع القطيع.

ـ هيا.

عاد القطيع بمشيته المتثاقلة ذاتها ولكن ليس لأنه ما زال متعبًا وإنما لتخمته من تناول الطعام الوفير.

مشى مكين بين الشابين الذين كانوا يمرحون ويقولون بعض النكات عن الزواج ومحاسنه ومشاكله، ويشير احمرار وجه مكين وخجله بأنها المرة الأولى التي يسمع فيها مثل هذه النكات.

- ألم تعرف من هي الفتاة التي اختارتها لك نزهة؟
- لا.
- ألم تعجبك فتاة ما؟
- نعم.
- من هي؟
- لن أقول.
- أظنني عرفتها.
- إني متشوق لرؤيتك في ثياب العرس.

أدخل مكين القطيع إلى الحظيرة. كان الشيخ مسعود ينتظره ليتناولا طعامهما سوية كالمعتاد..

- مساء الخير.
- مساء الخير.
- شكرًا يا شيخ.
- أنت من يستحق الشكر.

قالت نزهة ضاحكة: وأنا ألا أستحق الشكر؟!

- أنتِ تستحقين أكثر من ذلك. أجاب الاثنان سوية.
- على ماذا تشكرون بعضكم؟

- على انتظاري له للطعام. قال الشيخ.
على رعي القطيع. أردف مكين.
لم تقتنع نزهة بالإجابة بشكلٍ كامل وقالت: هذه أشياء بديهية أن يتعاون أفراد الأسرة جميعًا وأن يحبوا ويحترموا بعضهم بعضًا حتى يصبحوا وحدة متكاملة وعندها فليس هناك داعٍ
للشكر أو المجاملات. هل أنا مخطئة فيما أقول؟
بل إنكِ تقولين عين الصواب.
- إذًا هيا إلى الطعام.
- هل ستسرقك منا الفتاة التي ستتزوجها؟ أخشى أن تُنسيك إيانا. قالت نزهة. لن يقدر أحد كائنًا من كان أن يُنسيني إياكم. أنتم عائلتي الوحيدة وكل شيء بالنسبة لي.
- ما دمتِ خائفة من فقده فلماذا تُصرّين على تزويجه. قال الشيخ..
يجب أن يتزوج حتى وإن كان سيتركنا أو كانت ستسرقه منا. هذه هي الأم تفني حياتها كلها وتُضحي بكل شيء لترى البسمة على شفاه أولادها.
أمسك غريب يد نزهة وقبّلها بحرارة واحترام استجرا دموعًا سخية من عيني نزهة.
- تصبحون على خير.
- أحلام سعيدة، قال الشيخ غامزًا بعينه.
تمدّد مكين على السرير مسترجعًا في ذاكرته الكلام الذي قالته نزهة.
المرأة تلك المخلوق الرائع التي تفني نفسها من أجل زوجها وأولادها تعتصر لهم السعادة والغصة في حلقها. تضحي بكل شيء راضية ومقتنعة.
والنتيجة ماذا؟

مرتبة متدنية. وصم بالخبث والمكر والشر. إرث ديني غبي حمَّلها وزر شقاء الجنس البشري أجمع وتعاسته وكأنها عضو غريب ودخيل عليه. وهي أكثر من يُعاني.

حواء الخطيئة، الأفعى التي أغوت أبا البشر لفعل المحظور فطُردا من النعيم..

لمَ كان آدم ضعيفًا إلى تلك الدرجة؟ ولماذا لا يعتبر ضعفه وتهوره السبب ويجب أن يتحمل وزر فعلته؟ لمَ لا تكون المسؤولية مشتركة؟ ولكن كيف يُمكن ذلك والذكر يرى نفسه الأسمى والأرفع مقامًا وكأنه لا ينتمي إليها ولا تنتمي إليه.

وكأنه ليس ابنها وزوجها وأبيها..

لم يعلم كم من الوقت غفا فقد كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما نهض مسرعًا فهو يريد إنهاء مهمته قبل أن يُطلق الصبح أضواءه ويكشف أمره.

استلّ سلاحه وخرج..

****

كان الشيخ مستيقظًا عندما عاد مكين فلقد كان يحسّ بقلق شديد لا يعلم مصدره

وأن هناك شيئًا ثقيلًا يُطبق على صدره ويمنعه من التنفس.

شعرت نزهة بأن الشيخ ليس على ما يرام..

ما بك يا شيخ؟ هل أنت مريض؟

- أشعر ببعض الاضطرابات. لا بد أنني قد أكثرت من الطعام.. وقد بذل جهدًا لتبدو كلماته
مقنعة بما فيه الكفاية.
- سأحضر لك بعض الأعشاب..
لا داعي لذلك، الأمر بسيط، سأمشي قليلًا. عودي للنوم.
دخل مكين وبدأ يغسل آثار الدماء التي لطّخت جسمه وثيابه عندما اقترب منه الشيخ ولاحظ الشحوب الشديد الذي يكسو وجهه..
هل أنت بخير؟ سأل الشيخ بصوتٍ مرتجف وهو يقترب ليرى مدى الخطورة.
نعم كل شيء على ما يرام. يمكنك الذهاب للنوم.
أحسّ الشيخ بأن مكين يُخفي أمرًا ما. هل أنت متأكد من ذلك؟
- كل التأكيد. قالها ونهض وذهب إلى غرفته.
لاحظ الشيخ آثار الدماء وقد تأكد الآن بأن مكين ينزف، كنتُ أحس بأن هناك مكروهًا ما سيحدث.
نظّف الشيخ الدماء الحديثة قبل أن تجف ويُصبح من الصعب إزالتها فهو لا يريد أن تراها نزهة. وعندها ستمطرهم بسيل من الأسئلة والاستفسارت.
ثم ذهب إلى غرفة مكين الذي يُحاول تضميد جراحه.
قال الشيخ: أعرف أن مكروهًا حدث. أحسستُ بذلك. في البارحة كان شعورًا مختلفًا جدًا فلم يزاولني الانشراح والراحة بالرغم من قلق وصعوبة الانتظار والترقب. دعني أساعدك.
نظر الشيخ إلى آثار الأنياب العميقة التي تنزمنها الدماء في ساعد مكين، ثم بدأ بتنظيف الجروح وتضميدها على إيقاع كلمات مكين وهو يسرد القصة.
عادت الأحداث متسارعة في ذاكرة مكين. تكلّم وكأنه يرى نفسه الآن:

دخلتُ الغابة كما فعلتُ البارحة وكنتُ أمني نفسي بأني لن أنتظر كثير حتى أربأحد أولئك الأوغاد فلا أعود بلا إنجاز المهمة، كنتُ في همة ونشاط كبيرين وأشعر بطاقة هائلة تقبع في داخلي. كنتُ موفقًا جدًا وفرحتي كبيرة، فما إن اقتربت من المكان الذي اصطدت فيه ذئبًا البارحة حتى ظهر آخر وباغتني من الخلف..

توقف الشيخ قليلًا ثم استأنف عمله..

ولكنني كنتُ الأسرع وكانت عصاتي له بالمرصاد. وكانت ضربة موفقة ولم أحتَج إلى تكرارها فقد جاءت في النقطة القاضية من مؤخرة رأسه وكانت كفيلة بالقضاء عليه.. أمسكته من ذيله وبدأت رحلة العودة جارًا إياه ورائي، لم ألتفت إلى الوراء فقد كنتُ شاردًا

نظر الشيخ بدهشة واستغراب وأعاد: شاردًا؟

أعادتني تلك النصال التي اخترقت كتفي إلى الواقع، لأرى فكًا كريهًا يُحاول الإطباق على عنقي. رفعتُ عصاي فما كان من الفك إلا أن أطبق على ساعدي.

وكيف أفلتّ منه؟ سأل الشيخ.

التقطت عصاي بيدي الأخرى وضربته ضربة قوية بين عينيه، فما كان منه إلا أن أفلت يدي ليسمح لصرخة ألم بالخروج. وعندها اغتنمت الفرصة وأطبقت بيدي على رقبته بعد أن أرخيتُ ثقلي على جسمه ولم أتركه إلا جثة هامدة.

لنضع قليلًا من الأعشاب على الجروح فذلك سيُساعد على التئامها بسرعة، وسيخفف الألم. يجب أن تكون حذرًا جدًا. يجب ألا تذهب لوحدك بعد الآن.

خذ الأخوين معك، أنا أعرف بأنهم يشاطرانك نفس الأفكار ويتوقان للمشاركة. سيكونان عونًا لك ويحميانك من الغدر.

وماذا فعلت بالذئب بعد ذلك؟ أردف الشيخ.

علقته بجانب أخيه وتركتهما يتسامران على ضوء القمر. قالها مكين بسخرية.

.ولكن ما هو هذا الشيء الذي جعلك تغفل وأنت في وضع خطير كهذا؟

لا بد أن يكون سبب شرودك كبيرًا هامًا ومؤثرًا؟

- إنه كذلك. شردت بفكرة أن الغاب قد أصبح نظيفًا وأصبحت القرية آمنة والناس آمنون مطمئنون. وصاروا أكثر إدراكًا وأعمق فهمًا للحياة وما يجري حولهم.

لم يقل مكين إلا جزءًا صغيرًا جدًا من حقيقة الأسباب. فلم يقل بأن الفتاة الحوراء ذات الشعر الأبنوسي قد ذهبت إليه وأعادته معها إلى القرية التي كانت تحتفل بزواجهما.

. لا تخرج بالقطيع غدًا. سأطلب من أحد الشبان الخروج به. يجب أن ترتاح فما زال لديك الكثير من العمل.

.لا بأس إني بخير، إنها جروح بسيطة.

.ولا تنسَ أن لديك زوارًا غدًا.

كان مكين يرغب في القول أنه يتقصّد الخروج حتى لا يرى الفتاة القادمة. والتي لا بد أن نزهة على قدر كلمتها في موضوع الزواج. كان يحن إلى فتاته التي استولت على عاطفته ومشاعره كلها، حتى في أحلك الأوقات وأصعبها وكادت تودي بحياته. ولكن خجله منعه كالعادة من الكلام وسيمنعه أيضًا من الاعتراض على خيارات نزهة مهما كانت.

- إذا سألتك نزهة عن الخدوش فأنا متأكد من أنك ستعرف كيف تجيبها.

- بالطبع.
- نَمْ جيدًا.
- تُصبح على خير.

خرج الشيخ مفكرًا في نفسه: إنها جروح عميقة ولو كان الذئب بكامل قوته لكان مكين الآن معلّق في مكانه على الشجرة، يجب أن نتكلم ثانيةً في الموضوع فلم تُقنعني إجابته.

دخلت الفتاة من الباب الذي نسي الشيخ أن يغلقه، كانت ترتدي جلبابًا شفافًا أسود لا يخفي تفاصيل جسمها ولا يبينها بوضوح، تاركًا للخيال حرية الرسم والاكتشاف، اقتربت بحرقة مشوبة بالدلال من مكين الساهم فيها. وقد بدأ بياض جسمها يضئ من خلال السواد، وبدأت تظهر تقاطيع جسمها الوحشية المذهلة بتناسق لم يرَ له مثيلًا، ولن ير.

انحنت فوقه وغمرته رائحة جسمها حتى أذابته في أتون الشهوة والهيام ثم بدأت تُقبّل جروحه التي كانت تلتئم بسرعة عندما تلامس شفتيها بدون أن تترك أثرًا سوى آثار الشفاه الحمراء. لم يستطع الصمود أكثر فهوى معها، بها، عليها. وبلحظة خلعا ملابسهما وذابا في عناق حميمي.

عاد الشيخ ليجد الباب مغلقًا.

لقد وهنت ذاكرتي، لقد أصبحتُ عجوزًا، نسيتُ أني أغلقتُ الباب. مشى بعض خطوات لتوقفه أصوات دافئة لذيذة للقاء حميمي أتت من غرفة مكين.

لا بد أني تعب ومرهق من السهر والقلق. قال الشيخ في نفسه أو ربما بدأ الخرف يغزوك أيها الشيخ.

ولكنني متأكد أني لم أغلق الباب.

الغواية

كانت الأيام تمضي والولد يكبر وكانت المسافة بينه وبين أبيه الذي اعتكف داخل نفسه تكبر أيضًا. فلم يكن يزوره أحد سوى العجوز التي كانت تُحاول مساعدته في تخطّي الأزمة ولكن مهمتها لم تكن بالسهلة ولم تكن أسهل من مهامها الأخرى فما حدث ليس أمرًا سهلًا ولا يُمكن نسيانه لمجرد الرغبة في ذلك أو حتى قبوله أو الاستسلام له، لأن ذلك يعني التجرد من كل معاني الحس والشعور والذاكرة. بالإضافة إلى أن أمامه وبشكل دائم ما يجعل المأساة حاضرة في الذهن دائمًا وأبدًا. تلك المخلوقة التعيسة التي خسرت طفلتها، نفسها. طفلتها ثانية.. وذلك الخوف المقيم من فقدانها مرة أخرى وأيضًا ذلك الشيطان المقيم معهم. علاوة على تردد العجوز عليه وفي نيتها إطفاء تلك النار التي تتأجج في داخله وإذ بها تزيدها استعارًا واضطرامًا. كانت العجوز تُكرر الرجاء ذاته في كل فرصة تسنح لها لرؤيته. تُطالبه بالعودة إلى الحياة والاعتناء بنفسه وزوجته.

- يجب أن تخرج من هذه العزلة القاتلة. يجب أن تعتني بسلمى. أن تُحافظ عليها وتحميها. فهي الآن في أمسّ الحاجة إلى يدٍ عطوفة وصدر حنون.

- دعيني قليلًا أحتاج للمزيد من الوقت. كان جوابه المتكرر.

ولكن ذلك طال كثيرًا جدًا. والمرأة التعيسة تبكي طفلتها الميتة وزوجها الحي الميت وتبكي نفسها أيضًا. كل هذا يحدث في صمت فلقد قبلت بقدرها. كانت مؤمنة أن هناك حكمة خفية وراء ما حدث. وها هو عبء آخر يثقل كاهلها

بدل أن يكون هناك من يزيح هذه الأثقال عنها. ها هي محاولة إخراج زوجها إلى الحياة ثانية تستنفذ قواها الباقية..

ـ اخرج. أحتاج إليك. من أجل الطفلتين. ومن أجلنا نحن المرأتان اللتان أحببناك من أجلك أنت. من أجل كل ذلك. كان صوت سلمى يتردد في خلاء الغرفة.

يجب أن تترك هذا القبر المظلم وتخرج إلى الحياة ونورها. فما زال هناك الكثير من الجمال الذي يستحق أن يُعاش..

ـ أين هو هذا النور؟ وأي حياة تلك التي نسجتها بنات القدر ولونتها يد المنون وما فائدة النور الساطع عندما تغرق العيون في بحر الظلمات؟

ـ سأكون سفينتك لتكمل الرحلة وتصل إلى بر الأمان.

ـ لم يعد هناك بر أمان فقد طغت الظلمة وابتلعت كل النور تاركة الروح هائمة مع الريح. ولم يبقَ لها مكان لتضع حقيبتها وتهدأ أو تستريح قليلًا. فكل الأمكنة صارت إلى عدم وظلال..

ـ أنا أحتاج إليك لا تكن قاسيًا.

ـ لستُ كذلك، فلم يبقَ مني سوى قشور هشة وجوف فارغ. موت ينتظر موت.

ـ إنك تزيد في تعذيبي..

وتنتهي كل محاولة بخروج المرأة باكية بعد كل محاولة منها لإعادة إصلاح ما انكسر.

كان دائمًا يقول بأن هناك في مكانٍ ما وخلف ما يُسمى القلب يقبع الإنسان الحقيقي قد لا يُشبهنا كثيرًا. آلة بلورية شفافة سريعة العطب والانكسار.. فإذا ما حدث يومًا وتصدع أو انكسر فلا أمل في إصلاحه. فتجيبه سلمى بشواهد حية بأن هناك الكثيرين ممن يعودون للوقوف بعد كل سقطة أقوى

وأقدر على الاستمرار وأكثر حرصًا على الحياة ورغبة في امتصاصها حتى آخر شهقة. فيجيب متشائمًا:

إذًا لقد تحوّل ذلك الإله الشفاف لديهم إلى كثافة لزجة قد تحتضن فيها بذرة شيطانية تنتش وحشًا يمتصهم ويمتص من حولهم. فتخرج سلمى منتحبة وتخرج ما يعتمل بصدرها من أفكار صارت تتخطى دفاعاتها الإيمانية وتغزوها بين الحين والآخر.

لماذا يا رب كل هذا العذاب؟ أهكذا تكافئ عبادك المؤمنين الطائعين؟

لماذا ترعى الظالم وتعطيه وتزيده ازدهارًا وكان الأحرى بك وأنت العادل المنزه عن الظلم أن تقف في وجه الظلم والظلمة؟ ربما بدأ الشحوب يغزو شفافيتك أنت أيضًا. إذًا يجب أن تنتبه قبل أن تتشح كامل اللوحة بالسواد ويقتلك الوحش الشيطاني.

لمَ كل هذا القتل؟

لستُ مسؤولًا؟

من المسؤول إذًا؟

من أطلق يد الجاني، وتركه يعيث فسادًا؟ ومن له القدرة على إيقافه سواك؟

من كان يستطع أن يمنع جريمة ولم يفعل فقد شارك فيها.

أنت خلقت هؤلاء البشر المساكين. فلماذا نفضت يديك منهم وجلست تتسلى بمشاهدة عذاباتهم؟

لماذا خلقتهم؟ لهذا المصير؟ ليسجدوا لك ويستجدوا معونتك؟

ها هم يفعلون ذلك على الدوام ولا استجابة منك ولا استماع. ويصل صوت الظالم

إليك وتجيبه. بالرغم من قلة طلبه وحاجته؟ هل هناك وسيلة سرية للاتصال والتواصل بينكم، وسيلة لا يعرفها هؤلاء الضعفاء؟ هؤلاء الذين ظنوا أنفسنهم أقوياء بك وحدك. وها أنت لا تضع يدك عليهم ولا تسحبها عنهم. فإذا هم في عماء يتخبطون.

نفضت سلمى رأسها بشدة طاردة تلك الأفكار الشيطانية التي تسكنه ولائمة نفسها على مجردالتفكير بمثل هذه الطريقة.

لقد اخترقت المحظور. جلّ الله عن الظلم.. يجب ألا نفقد إيماننا عند الشدائد، فهي امتحان لنا، ولإيماننا. يجب أن نتخطاه بنجاح لنصل النتيجة المرجوة، والسعيد من فعل ذلك.

دخل حنظل بصخب شديد إلى المنزل برفقة فتاة شابة، كان يضع يده حول خصر الفتاة واليد الأخرى في مكانٍ ما على صدرها. وكانت الفتاة محلقة في فضاءات من السعادة المرح.

لماذا أسموه حنظل. وكيف صمد وحده في وجه الموت؟ أهي مصادفة أم قدر؟ أيعقل أن يكون كلام العجوز صحيحًا!

إنه يتفجّر صحة ونشاط وحيوة بينما يتساقط كل من يحيط به ظلال أسباح وموتى.

أخفض صوتك قليلًا. قالت له سلمى من أجل أبوك.

أما زال معتكفًا في صومعته؟ لمَ كل هذا؟ ليس الوحيد الذي فقد أشخاص أعزة مقربينهل يرثيهم أم يرثي نفسه؟

ستكون هذه الغرفة قبره وسيخرج منها إلى قبر جديد.

أعوذ بالله منك، ومن أفكارك. هذا أبوك فلا يجب أن تتكلم عنه بهذا الشكل.

أنت أكثر من يعرف بأنه ليس أبي. فالأبوة ليست ذلك الارتباط الجسدي وليست في إنتاج تلك النطفة التي تتحول الى جنين ثم يخرج إلى هذه الدنيا العفنة محملًا بالألم والعذاب.

إنها أكثر من ذلك بكثير. إنها ارتباط روحي، اتحاد لا مرأي يصل ما بين الوالد والولدليكونا واحدًا يحس الواحد منهما بعذابات الآخر. وليس ذلك الأب الذي يظل يعيد ويكرر تلك الترتيلة المضحكة. ألا يكفي أنني أنجبتك؟ لا لا يكفي.

ماذا يعني هذا الكلام وماذا فعل؟ مارس الجنس لمتعته مثل أي ثور وكانت النتيجة أنا. ولكن حتى الثور يعتني بابنه ويعينه حتى يُصبح قادرًا على الاعتناء بنفسه.

تعرفين أيضًا أنني غير موجود بالنسبة له. بل الأسوأ من ذلك أنه يتحاشاني وكأني كلب مسعور.

.وأنت أيضًا لم تُحاول الاقتراب منه. ردت سلمى مدافعة عن سعيد.

.لم يترك لي الفرصة وليس هناك أمل من المحاولة، تعرفين ذلك. أنت أقرب إليّ منه. رغم عدم مشاركتك بذلك العمل القدسي. قال جملته الأخيرة بتهكم وبقرف. أنت كل عائلتي. أبي وأمي وكل شيء. وأما هو فلا شيء، لا شيء.

قال ذلك ودخل إلى غرفته يغني.

لقد هرب منك ليهرب من الموت الذي ارتبط بولادتك. لم تصل إليه الكلمات الثلاثة الأخيرة.

أعرف ذلك جيدًا. قالها من الداخل.

بقيت الفتاة غير مبالية بالحديث. فقد كانت تقلب نظرها في زوايا المنزل في محاولة استكشافه.

نظرت إليها سلمى معجبة بجمالها وحيويتها.

يا لجمال هذه الفتاة! لقد ذكرتني بنفسي، ارتسم طيف ابتسامة على شفتيها.

اقتربت الفتاة من سلمى. انفرج ثغر الفتاة الشهي وأطلق صوتًا عذبًا رقيقًا شفافًا أشبه بصوت الملائكة سائلة: خالتي، هل تحبين الموت؟

ارتعبت سلمى من السؤال الذي فاجأها، فقد كانت تتوقع أغنية سحرية، همسات من الشعر،

كلمات حب. وإذا بالسؤال يطرق باب الذاكرة بعنف ويعيد صور وذكرى من أحبتهم حية ملحة. شحب لونها وقالت بصوت مرتجف:

لا لا أحبه فقد خطف مني أعز ما لدي، ابنتي، فلذة كبدي، أحبائي.

وكأني أراه يحوم حول زوجي. لا يا ابنتي لا أحد يحب الموت. نتقبله كأمر لا بد من وقوعه يومًا لا مفر منه نعم. أما أن نحبه فلا.

قالت الفناة بمرح. أنا أحبه، أحبه كثيرًا وأريد أن أخوض تلك التجربة المثيرة الممتعة.

صعقت سلمى من هذا الكلام: ماذا تقولين يا ابنتي؟ هل تدركين ما تقولين؟

من الذي وضع فى رأسك الجميل هذه الأفكار القبيحة الشيطانية. اللهم إن الموت حق. نعم.

ولكنه مخيف ومؤلم. لا نعرف ما يحدث للميت. ولكننا نعرف ما يحصل لمن ترك وراءه من الحزن والأسى واللوعة على الفقد والفراق.

.أي متعة هذه التي تتحدثين عنها. لستِ تعرفين أي درب تسلكين، ولا أي رعب ستصلين.

. ولكن هناك من عاد من الموت ويعرف كيف وإلى أين سيصير الميت. قالت الفتاة.

هذا ادعاء كاذب ودجل. كيف تُصدّقين مثل هذه الخرافات.
ليس كذبًا أو خداعًا. وليس كلامًا فارغًا. إنه حقيقة واقعة. كانت الفتاة مقتنعة بكل كلمة تقولها. اسألي حنظل فقد جرّب الموت مرارًا وتكرارًا.
جرب الموت؟ وهل الموت تجربة؟ إن من مات لا يعود. هذا هراء وكفر
هو قال لي ذلك وأنا متأكدة بأنه لا يكذب. قالت الفتاة بعنف..
ماذا فعلت لهذه المسكينة؟ ومن أين لك كل تلك القدرة على الإقناع حتى لتصدق المستحيل ما دمت أنت الذي قلته؟ قالت سلمى لنفسها.
أكملت الفتاة بلهفة: لقد وصف لي كل ما يحدث وبأنه ما إن تغلق الدنيا بوابتها حتى تفضي إلى مملكة المطلق حيث لا محظر. وحيث المكوث هناك متعة لا تنتهي، إذًا تزول هناك كل الحواجز والمحظورات والتناقضات. حلال، حرام. صح وخطأ. الحرام والخطأ لا يحق لهم دخول تلك المملكة.
وإذا ما أردت العودة فستعودين من خلال البوابة نفسها التي خرجت منها. تدخلين فيها وسوف تُعيدك إلى الحياة ثانية بكل بؤسها وشقائها ومرها.
ماذا رأيتِ من البؤس والشقاء والمرارة أيتها الطفلة الصغيرة؟ فكرت سلمى مستنكرة وأما من لا يعود فيكون قد أضاع بوابته الخاصة التي دخل منها. إذ لا يستطع أحد استخدام سوى بوابته الخاصة به. وقد تحدث استثناءات نادرة. إذ في لحظة انفتاح بوابة شخص آخر للدخول، يخرج منها من ظنها بوابته التي دخل منها. وفي رحلة العودة يتأثر بتلك الرحلة الجديدة، ولهذا عندما يعود إلى الحياة ثانية فإنه يتقمص شخصية الآخر التي تطغى على شخصيته حتى ليصدق بأنه الشخص نفسه.
لم تكن سلمى تستمع فقد أخذتها التساؤلات بعيدًا جدًا.
من أنت أيها الولد الغريب؟

لماذا تسرق رحيق هذه الزهرة وتضع مكانه سمًا زعافًا سيقضي على كل من يقترب منها؟

ولا بد أن يفضي إلى موتها في النهاية؟

لا يحق لك ذلك. اخرج أنت من هذه الحياة ولا تعد أبدًا. ولتفتح لك كل بوابات الكون ما عدا بوابة هذا البيت الذي سئم منك.

دخل حنظل ثانية ليجد الفتاة تتكلم بحماس شديد إلى المرأة الساهمة الهائمة على وجهها في صحراء الخيال تبحث عن بوابة تُعيدها إلى الاتزان والهدوء الداخلي برقت عينا حنظل وارتسمت على فمه الابتسامة الخبيثة التي ألفتها شفتاه وألفتها عيون الآخرين أيضًا.

وقال: أرى أنكما تآلفتما بسرعة. عما تتحدثان؟

أجابت سلمى والانزعاج باديًا عليها: عنك.

- إذًا يحق لي أن أكون ملك الفرح الآن. فهاتان أعز امرأتين على قلبي وأنا أشغل تفكيرهما.

قالت الأم مقاطعة: امرأتان! نظرت الفتاة إليه وقد تورد خداها وغمزته بعينها..

- امرأة وفتاة. الأعز على قلبي من أمي التي ماتت دون أن أعرفها. وأبي الذي سيموت دون أن أعرفه أيضًا.

ردت الفتاة بحب وأنت أغلى عندي. وتعرف أني أفعل المستحيل من أجلك.

لا مستحيل إلا عند الضعفاء. قال حنظل. ثم ألم أقل لك إن كل ما أريدك أن تفعلينه هو لك ولك وحدك.

عادت إلى المرأة موجة الحنان والعاطفة التي فقدتها للحظة وقالت بأسى وبالحب:

إنك ابني الذي لم ألده، ولكنني أشعر بأنني فعلت. أنت وحيدي الآن الذي لم يبقَ لي غيره.

ولست بحاجة إلى من يخبرك عن حب وتضحية الأم.

- ولكني أحتاج إلى من يخبرني عن حب الأب وعطفها.

أكملت سلمى وكأنها لم تسمع كلماته المستفزة. فلم تكن تريد أن تدخل في نقاش حامٍ تفقد فيها أعصابها مرة أخرى..

ولكن ما هذا الكلام الذي تقوله لهذه الفتاة؟ ولماذا تسمم أفكارها بأحاديث ومواضيع كهذه؟

إني أمازحها فقط. أحاول أن أعلّمها كيف تسرح بخيالها في فضاءات مجهولة. قال حنظل.

هذا جميل ولكن اختر موضوعًا غير موضوع الموت، دعها تُبحر وتطير في سماوات الحب والخير والجمال.

نظر حنظل إلى الفتاة وسألها: هل اعتقدت بأن ما أقوله حقيقة أو أنني أعنيه حرفيًا أو أنه ممكن الحدوث؟ إذًا أنتِ مخطئة يا عزيزتي.

أجابت الفتاة: لا طبعًا وهل أنا مجنونة لأصدق مثل ذلك؟

ظهرت نظرة حيرة على وجه سلمى التي لم تعرف هل قالت الفتاة الحقيقة أم أنها خافت من حنظل؟ حتى لو كنت جادًا وكانت حقيقة فأنا لا أحبذ هذه الفكرة ولا أريدها.

لو كنت ذكرًا لكان الحال أفضل. أي مملكة وأي مطلق ذلك الذكوري الذي وسم كل شيء بخاتم عضوه الذكري وأما الأنثى المسكينة فستكمل المعاناة التي تعيشها هنا وستنقل مكانتها المتدنية معها إلى مملكة العدل الكلي. أي عدل هذا الذي يقوم على رأسه ذكر عنين

يُمارس ساديته هناك بنفس الزخم الذي يقوم به هنا؟

لقد تفوقت على أستاذك. قال حنظل مبتسمًا.

ازداد اتساع عيني سلمى من الدهشة المشوبة بالرعب من تلك الكلمات التي تصدر عن ذلك الغصن الباسق الرقيق والرائع الجمال. وشعرت للحظة بأنها ترى صورة حنظل فيها وابتسامته الخبيثة.

ما هذا الكلام الفارغ؟ ماذا تعلّمها أيها المخبول؟ هل هذا ما تتحدثان به وتفعلانه!

كلام غريب شاذ. وكأنك ترى عصفورًا جميلًا زاهيَ الألوان فتنتظر بشغف أن يغني ليكتمل البهاء. فإذا بك تسمع صوت حمار فيحوّل العصفور إلى حمار بائس.

قالت الفتاة بمشاكسة: لا يا سيدتي نحن لا نضيع وقتنا بأشياء فارغة لا معنى لها بل نستمتع به إلى أبعد الحدود. فهو هبة يجب استثمارها إلى آخر لحظة. ونحن نفعل ذلك قولًا وفعلًا. وبغمزة وحركة فاضحتين سألته: أليس كذلك؟

نعم هذا ما يحدث.. لم يكن من الصعب استشفاف مقصد الفتاة، ولكنها آثرت إظهار أنها لم تفهم ذلك.

.كل الأحاديث أفضل من هذا الكلام الفارغ الذي لا فائدة منه ولا معنى له.

قالت هذه الكلمات وهي تخرج، فقد أحست برغبة عارمة بالبكاء حتى كادت تختنق.

فقد كان لكلمات الفتاة أثر كبير في نفس سلمى، فقد كانت تقول شيئًا من الحقيقة والصواب، وخاصة تلك النظرة الذكورية تجاه الأنثى والجنس والتي تراها هي الأخرى نتاج خيال ذكوري متسلط شاذ مكبوت.

أنّب حنظل الفتاة بعنف لتماديها في الكلام مع سلمى إلى هذه الدرجة.

. لقد حذرتك من الخوض في الأحاديث التي نتقاسمها سوية مع أحد آخر. وخصوصًا هذه المرأة المسكينة. فهي لا تُحب الحديث عن الموت بعد كل ما فقدت.

فالمسكينة لا تعرف إلى أين ذهبوا وكم هم سعداء. ولكنكِ يا عزيزتي ستعرفين ذلك وستدركين كم هي تجربة رائعة.

. لا شك عندي في ذلك ما دمت جربته. ولكن هناك سؤال يشغل تفكيري.

. ما هو؟ سأجيب إن كنت أعرف الإجابة.

. هل تقبل أن أمارس الجنس مع شخص آخر؟

. لا.

. لماذا؟ ألأنني أنثى ولا يحق لي ذلك. أم لأنك تحبني؟

. لأنني أحبكِ طبعًا. وإذا ما توقف حبي لك فلا فرق عندي إذا ما مارستِ الجنس مع مئة رجل، وعلى قارعة الطريق. فأنا لا أحبذ تلك الأفكار الخرقاء وتلك الأدوار التي يحب الرجال العاديون تمثيلها حتى ينالوا في النهاية جائزتهم من النساء والخمر السماوي، وكأن غاية هذا الخلق لا تتعدى السكر والعربدة والعهر، لتكون هذه هي النهاية المحتومة.

وهل من الممكن لعاقل أن يقتنع بأن هذه الأفعال التي تودي بفاعلها إلى الجحيم في النهاية ستكون مكافأة لمن امتنع عنها. أنا لا أؤمن بهذه المتاهة. إن لي طريق شديد الوضوح لنستثمر الحياة بكل متعها إلى آخر حد ولنذهب إلى الموت غير نادمين على شيء.

- أحبك لهذه الأفكار وسأفعل ما تريد. أنا أيضًا سأذهب في طريق آخر غير ذلك الذي يفضي إلى إعطائي شهادة عاهرة شرعية.

اقترب منها ضمها إلى صدره بقوة. رفعت رأسها إليه وتهدلت شفتها السفلى في حركة مثيرة كمن تنتظر قبلة اعتادتها.

وبلحظة التهم شفتيها الشهيتين.

ساعة الصفر

أقبل الصباح دافئًا ومشرقًا وكانت الشمس تُلقي التحية على الجبال والوديان حتى وصلت إلى الشجرة الكبيرة على طرف المرج. وقفت هناك قليلًا، تأملت الثمرات التي ظهرت حديثًا، ثم غادرتها تاركةً ظلالًا تتراقص على الأرض.

أكملت الشمس طريقها إلى البيت الكبير حيث تخطّت أشجار السر لتُعانق أشجار الفاكهة بود، حتى وصلت إلى النافذة الشرقية للبيت، ثم بدأت تطرق عليها طرقًا خفيفًا ناعمًا..

ولكنه كان كافيًا لإيقاظ نزهة التي نظرت إلى الشيخ مسعود وهو يغط في نوم عميق.

إنها المرة الأولى التي تسبقه نزهة في النهوض، قالت في نفسها تبدو عليه أمارات التعب. سأعد له بعض الأدوية العشبية، خلطتي السحرية. أنا متأكدة من أنها ستعمل عملها.

صباح الخير يا شيخ، قالتها وخرجت.

كان لديها الكثير من الأعمال لتقوم بها، عليها أن تكون مستعدة لاستقبال زوارها الأعزاء بعد أن تأكدت الشمس من استيقاظ نزهة. ذهبت إلى القرية وأطلقت نفيرها موقظة سكانها على وقع مفاجأة أخرى، كارثة أخرى.

دبّ شعور عام بالرهبة والخوف. هل هو عاصٍ آخر؟ ما نوع العصيان الذي قام به ليستحق هذا المصير؟

ولماذا يُعلَّقون هناك على الشجرة الكبيرة؟ هل الآلهة هم من فعلوا ذلك؟
أسئلة كانت تتجول وتتداخل في كل بيوت القرية.
ربما كانت آلهة أخرى. تلك الآلهة القديمة التي طردت من التل كما تقول الإسطورة. طردتها آلهة جديدة أصبحت آلهتنا، ربما عادت لتطالب بإرثها، بحقها في التل والغابة.
أين نحن من ذلك الصراع ؟ لقد قبل أجدادنا بالآلهة الجديدة وعبدوها.
ونحن هل يجب علينا أن ندافع عن آلهتنا أم نقف وننتظر المنتصر ونعلن تبعيتنا له فليس لنا مكان في مثل هكذا صراع. لن يتغير الكثير وربما لن يتغير شيء سوى بضعة أسماء. ربما كانت الآلهة مختلفة هذه المرة. إذا كانت مختلفة فنتمنى أن يكون الاختلاف مفيدًا لنا ولصالحنا.
كان الهم والخوف يغزيا كل بيت من بيوت القرية المنكوبة ما عدا بيت الشيخ الذي كان يعج بالبهجة والفرح والحركة.
يجب أن نستشير الشيخ. أجمع السكان. ومن غيره قادر على حل هذه المعضلة التي أرقتنا.
ما زال الوقت مبكرًا.. لا كلنا نعلم أن الشيخ لا يتأخر في الاستيقاظ إلى هذا الوقت. إنه وقت مبكر على أخبار سيئة، دعونا ننتظر قليلًا.
أحس سكان القرية وكأن الزمن قد توقف تمامًا والشمس صلبت على بوابة السماء.
لم أعد أطيق الانتظار.. صرخ أحد السكان متململًا: أنا ذاهب الآن. كانت كلماته الشرارة التي ينتظرها الحشد الذي انفجر باتجاه بيت الشيخ. لم يكن الشيخ قد استيقظ عندما وصلوا،

استقبلتهم نزهة بطريقتها المعهودة في استقبال الضيوف وقالت: أصاب الشيخ بعض التعب ولم يستطع النوم حتى وقت متأخر من الليل. ولكن ما سبب هذه الزيارة المبكرة؟ قالت جملتها الأخيرة بخجل..

- يبدو أنكِ لم تعرفي بالكارثة التي وقعت.

اتسعت عينا المرأة: أية كارثة؟

الذئب الحارس الميت المعلق على الشجرة الكبيرة. أحست نزهة بالراحة فقد شرح لها الشيخ ما حدث. فقالت: ألم تنتهِ قصة الذئب بعد؟

ألم تسألوا الشيخ وأجابكم؟

هل أصبحتم تشكون في حكمه وحكمته؟

- إنه حارس آخر..

سقط الوعاء الذي كان في يد نزهة مُصدرًا ضجيجًا كبيرًا أيقظ كلا الرجلين النائمين في الداخل.

- ماذا حارس آخر! اتسعت عينا المرأة من الدهشة والذعر.

- ما الأمر أيها الرجال؟ قال الشيخ بحزمه المعتاد.

- حارس آخر قُتل وعُلّق بجانب أخيه على الشجرة الكبيرة. ما الذي يفهم من هذا الموضوع؟

- وماذا يجب أن نفعل؟

- لا شيء. قالها الشيخ بهدوء شديد أثار دهشة نزهة التي لم تعتد من الشيخ الاستهانة بأمر

يتعلق بالعبادة والآلهة مهما كان صغيرًا. بقي الحشد محدقًا ضائعًا.. كيف لا شيء؟

عودوا إلى أعمالكم وحياتكم الطبيعية لقد أتيتم سائلين وقد أحضرتم معكم الجواب الذي تبحثون عنه.

وكيف ذلك. نظر الرجال إلى بعضهم بعضًا..

حارس آخر بنفس الطريقة في القتل والتعليق. إذًا الفاعل واحد في كلتا الحالتين.

عاص آخر والمصير نفسه. فهم الناس ولاموا أنفسهم على إيقاظ الشيخ. كان يجب أن نُفكر بالأمر على هذا المنوال وبهذه الطريقة نجد الجواب.

ولكن من هو هذا الفاعل، هل من المحتمل أن تكون الآلهة القديمة قد عادت للانتقام..

ربما قال الشيخ أو ربما آلهة جديدة جاءت لتخط دربًا مختلفًا، وربما كان هذا لصالحكم وفائدتكم. شكرًا يا شيخ لولاك لكنا ضِعنا أو تهورنا في أفعالٍ خاطئة.

نظرت نزهة بفخر إلى الشيخ.

تفضلوا لنتناول شيء ما.. دعاهم الشيخ للدخول.

لدي بعض الأعمال الضرورية. كان من المفروض أن أنهي نصف عملي في مثل هذا الوقت يجب أن أخرج بالقطيع فقد تأخرتُ جدًا وأنا متأكد بأنه قد أيقظ كل المنزل بصياحه.

تفرّق الحشد كل يتلو عذره. وتبدّدت الغيمة السوداء التي كانت تُظلل رؤوسهم.

كان شابان يراقبان الحدث من بعيد.

لقد بدأت أحب الشيخ.. قال أحدهم: انظر إلى فعله السحري. إن له طريقة رائعة ذكية في التعاطي مع الأمور هادئ ورصين، وحازم في نفس الوقت.

لم تكن كلماته ونظراته الحاقدة التي رأيتها حين قتلت أمي تُغادر ذاكرتي.

نعم لقد علمتني الأيام أيها الشيخ. معك حق. إن التهور هو أسوأ الصفات، أكثرها ضررًا قل القليل وافعل الكثير، كن عاقلًا وإياك أن تضع نفسك في مواجهة السيل الهائج فسيجرفك بعيدًا.. تعلمت الدرس.

لقد عرف كيف يتحكم في هذا السيل يوجهه. أين ومتى يضع السدود.

هل رأيت ذلك الظل الذي كان يقف وراء النافذة؟

لم يكن ظلًا، بل نورًا، إنه النور القادم..

إنه المخلص.

****

كان مكين يقف وراء النافذة يراقب هؤلاء المساكين ويرثي لحالهم. كيف تتلاعب بهم الأقدار.

أين عقولكم أيها القوم؟ لماذا تركتموها وحيدة منسية مهجورة؟ حتى إن البعض اغتال عقله ليرتاح من إلحاحه؟ لماذا وضعتموه جانبًا حتى نسيتم أنه موجود، وهكذا ذبل وضمر من الإهمال والإقصاء؟

استلقى مكين على سريره ثانيةً فقد جذبته فتاته من يده وأعادته لائمة:

لماذا لم تقل أنك تُحبني؟ لمَ كل هذا التردد والخوف والكتمان؟ هل نسمي ذلك خوفًا وجُبنًا؟

ربما فلكل حالة جرأتها ولكل موقف شجاعته؟ وبحزنٍ أضافت: ستأتي اليوم فتاة أخرى وستحتل مكاني. سأطرد خارجًا كممسوس. وكشبح سأبقى هائمة حول قلبك وروحك.

كيف سيرد عليها؟ وماذا سيقول لها؟ نعم إنه جبان رعديد. تهزه كقصبة في مهب لريح نظرة عابرة منها أو ابتسامة غنوج.

لم يقل شيئًا بل ضمها إلى صدره. ذاب فيها وأغفى راجيًا الأقدار لتُساعده.
لقد تأخّر مكين في النوم هذه الليلة قالت نزهة مستفسرة:
لقد تأخر في الذهاب إلى النوم، عندما وجدني مريضًا بقي ساهرًا معي حتى تأكد من أني شعرتُ بتحسن وذهبت للنوم. وعند ذلك ذهب هو أيضًا للنوم.
دعيه حتى ينهض لوحده.
لقد اقترب موعد وصول الزوار. إنها فتاة رائعة تليق به. قالت نزهة.
قالت الفتاة بصوتها العذب المشوب بالحزن: أنا ذاهبة الآن. انهض فلديك ضيوف قادمون..
- لا تذهبي أرجوكِ. لا أريد سواكِ. لن أخرج أو أرى أحدًا.
- بل يجب أن تخرج، وأخرج مخاوفك وارمِ بها بعيدًا، وحينها ستجد الحل.
- لا أستطيع.
- المخلص الشجاع الذي يتجرأ على الآلهة وكهنتها يضعف أمام هذا المخلوق الضعيف الرقيق.
- لو تعرفين كم أنتِ قوية في ضعفك، وكم أنتِ عظيمة في رقتكِ، وكم لديك من الأسلحة التي تُجاوز كل آلات الحرب فتكًا وتدميرًا!
- إذن امتشق أسلحتك واخرج للنزال.
- لا بد أنني سأخسر.
- كن شجاعًا سأكون معك بجانبك وأساندك.

****

التفتت النسوة إلى الباب الذي فتح فجأة وظهر من ورائه وجه شاحب ما لبث أن اصطبغ بالحمرة وعاد إليه بهاؤه عندما رأى الضيوف. همست له الفتاة قلتُ لك إنني معك.

كانت نزهة تجلس بين فتاتين فاتنتين تُحاكيان القمر جمالًا وبهاءً. نظر إلى فتاته فأينعت وصارت الفراشات ترقص بين الورود.

- لماذا عدت يا فتاتي؟ لتعذبيني؟ لمَ لم ترحلي؟

- كيف سأختار غيرك وأنتِ جالسة هنا أمامي؟

لا مكان للشجاعة في روض الأزهار ولا للبسالة بين أجنحة الفراشات.

إني ضعيف. أُقر بهزيمتي. اذهبي بعيدًا وخذيني معك. ساعديني في الخلاص أطلقي حكمك بالانفلات والحرية من هذا المنفى الأبدي.

ورد ومريم..

كان يريد القول مَن اخترت لي؟ ولماذا لم تدعي وردًا لوحدها؟ على أيهما وقع اختيارك أم أنكِ لم تختاري بعد؟ إذا سألتني سأقول لك وبكل شجاعة وحزم ورد هي حبيبتي الوحيدة.

أهلًا وسهلًا.. وصلت أشلاء تلك الكلمات إلى مسامع الفتاتين. فنظرتا إلى بعضهما البعض وابتسمتا..

اقترب واجلس معنا قليلًا. قالت ورد.

أراد أن يطير إليها كنحلة برية. يغوص بين بتلاتها ويمتص رحيقها رشفة رشفة..

ولكنه خائف من أن يكون جناها ملك شخص آخر.

ورد ومريم شقيقتان من عائلة تسكن في الجوار، قالت نزهة. لم يكن المرء يحتاج إلى كثير من البداهة ليعرف أنهما شقيقتان، وردتان من غصنٍ واحد، ولولا لون شعرهما المختلف لبدتا كتوأمين. لم يكن مكين قد شاهد مريم من قبل. وأما ورد فهي فتاة أحلامه. حلم يقظته.

انطقي أيتها العجوز الطيبة، انطقي وقولي اخترتُ لكِ وردًا. وعندها سأنهي أعمالي بسرعة الريح وقوة العشق وأعود لأتوّج نصري بعبيرها.
مريم. لا، لا تقوليها. شعر مكين بالانقباض..
مريم متزوجة في قرية أخرى، وهي في زيارة قصيرة لعائلتها ولقريتها وقد أحبّت أن تراك. ورد أختها أظنك شاهدتها من قبل.
لتبقى مريم دهورًا، فذلك الجبل الذي كان يثقل كاهله قد ذاب دفعة واحدة وبلّل جسمه كله وبكلمة واحدة – متزوجة.
شكرًا للأقدار فقد أصبح متأكدًا من أن نزهة اختارت له وردًا. وكم كان يتمنى أن يقول إنه لم يشاهدها فقط، بل إنها ترافقه في كل وقتٍ ومكان.
لقد احتلّت قلبه واستوطنته.
تشرّفنا. كانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها ولكن هيئته قد قالت الكثير.
لو لم أكن متزوجة لما تركتك تذهب من يدي. قالت مريم وهي تغمز بعينها لورد..
كان في داخله فوضى بركان ثائر أظهر من أثاره تلك الحمرة الشديدة التي كست جسده وتلك القشعريرة التي ظهرت على جلده. لم يقدر على الصمود أكثر فسلّم أسلحته وأعلن استسلامه الصريح وخرج منتحلًا عذره القديم ليبتعد عن الفتيل الذي قد يطلقه في أية لحظة.
يجب أن أذهب فلدي أعمال يجب أن أنجزها.
- أنهِ أعمالك بسرعة لأني سأزوجك. قالت نزهة. نظرت الفتاتان إلى بعضهما البعض وضحكتا.
هذا ما سأفعله فلم أعد أطيق البعاد. كان جوابه لنفسه.

قالت ذات الشعر الأبنوسي بحرارة وحب: قلت لك إني معك وسأساندك.. أنهِ أعمالك وعندها لن نفترق. أمسكته من يده وبدءا يطيران متراقصين على أنغام غناء العصافير وهمسات النسيم للأشجار. وغنّى هو أيضًا.

وكمركب تائه واتته الريح بعد طول انتظار فرَاح يشقّ عباب الزمن ليُوصل بحّارته إلى جزيرة النجاة.

ريح الصبا بكل وداعتها ودفئها تحوّلت في داخله إلى إعصار هائج سيزيح كل العوائق والشرور والآثام. حانت نهاية الرحلة يجب أن نغذ السير.

وهكذا بدأت الشجرة المطلة على المرج تحمل في كل يوم ثمرة جديدة. وبدأ الناس كعادتهم ألفة كل جديد. لقد زالت رهبة حراس الغابة. لم يعد لهم تلك الرهبة والسطوة فها هم الآن معلقين كثمار جافة لا حياة فيها.

كثرت الأحاديث عن إله جديد سيظهر قريبًا في التل المقدس. وقد بدأ حربًا شرسة على الآلهة القديمة وحراسها الطغاة. وها هو يجتثهم منها كحشرات ضارة.

ويُقال إنه بعث رسولًا ليُمهّد له الطريق. أعطاه شيئًا من قوته. بركان ثائر يحفر دربًا راسخة واضحة المعالم.

كانت خطابات الشيخ قد زرعت فيهم هذه الأفكار الجديدة، كان يفتتح حديثه دائمًا بالنبوءة ذاتها التي تحكي قصة التل وآلهته وحراسه.

قالت النبوءة بإن رجال الآلهة، كهنتها وحراسها ستزداد شرورهم إلى الدرجة التي تُقرر أن تتخلص منهم، فقد أصبحوا عبئًا ثقيلًا عليها بعد أن كانوا سندًا لها.

وهكذا ستتخلص منهم واحدًا بعد الآخر. وفي النهاية تجد نفسها وقد أصبحت وحيدة مهجورة

وهنا سيأتي إله جديد مختلف كل الاختلاف عما ألفناه من الآلهة التي عرفناها. لن يكون هناك كهنة وحرس يعيشون في الظلام وينزوون عن الناس والناس يعبدونهم بل سيكون الشعب هم كهنته، حراسه خدمه ونفسه. وسيبعث رسولًا منهم رأفةً بهم ومخلّصًا إياهم من آثام الماضي.
أصبح اسم المُخلص على كل لسان وأصبح إلهه أمرًا واقعًا لا محالة، وبدأ الناس يقتربون من الغابة بحذرٍ بادئ الأمر أخذ يتلاشى رويدًا.. رويدًا حتى اختفى.
كانوا يأملون رؤية الإله الجديد، مُخلصه ورسولهم –مُخلّصهم– ليُقدّموا له الطاعة والولاء. وكلٌ يُريد أن يكون الأسبق.
طلب مكين من الشابين الاشتراك بالعمل بصمتٍ وحذر. كان بعض الناس قد رأوا مكين مرة من المرات وهو يُعلّق أحد الذئاب.
إنه المخلص. لقد بعثته الآلهة لنا.. قال البعض. وقال آخرون: لقد عرفت ذلك منذ البداية ولكنني خشيتُ البوح. هيئته وذلك الشكل الملائكي لم تكن لتجتمع لبشر.. إنه إله.. ابن الآلهة ورسولها. لقد رأيته يحمل الذئب كما يحمل الطفل الصغير، عصفورًا صغيرًا ميتًا وبسهولة شديدة يُعلّقه على الشجرة.
وقد أقسم آخرون بأنهم رأوا هالة نور تُحيط به. قال آخرون لم يكن يمشي، ولا كانت رجلاه تلامسان الأرض، وإنما كان يتنقل طيرانًا. وقد أكّد آخرون بأنهم لاحظوا بأن أجنحةً كأجنحة النسر تنبت في ظهره وتحمله عاليًا.
كانت تلك الأقاويل تصل إلى الشيخ فيبتسم ابتسامة رضى. وكان إذا سُئل عن ذلك أجاب بإيجازٍ شديدٍ يحمل في طيّاته موافقة لرواياتهم بشكلٍ غير مباشر فقد قالت الآلهة بأنها ستبعث رسولًا، ربما كان هو هذا الرسول
هل لاحظت شيئًا أيها الشيخ؟
- لستُ متأكدًا.
أدرك الشيخ بأن الوقت ملائم جدًا للتغيير وإظهار المخلص.

الخروج

سُرّت سلمى عندما رأت زوجها يُغادر عزلته خارجًا إلى الحياة.

كان يبدو أكبر من عمره بكثير. وجهه النحيف الشاحب يحكي قصة العذاب يُغطيه شعر كثيف غزا الشيب معظمه وطال حتى وصل إلى عينين غائصتين في محجريهما في محاولة لإخراجهما إلى السطح. ولحيةٌ طالت، غمرها الثلج هي الأخرى لقد قاست الكثير وهي تراه منكفئًا على نفسه. ظنت أنها مسألة وقت قصير وتشفى جروحه ويعود إلى الحياة. كما حدث معه في فقده الأول لزوجه وابنته ولكن ذلك لم يحصل. استخدمتْ كل وسيلة تعرفها لإخراجه من منفاه الاختياري ولكن بلا جدوى. حتى أنها اقترحت عليه أكثر من مرة فكرة إنجاب طفل آخر على الرغم من مخاوفها العظيمة من تكرار تلك التجربة. ولكن ذلك يستحق المحاولة إذا كان من شأنه أن يُعيدإليه الطمأنينة والحياة.

رفض سعيد الفكرة رفضًا قاطعًا. ولم تلُمه على ذلك. كان يقول والدموع تستجر من عينيه دون أي محاولة منه لإيقافها: لقد تعبتُ من الفقد، تعبتُ من الألم، تعبتُ من الموت.

وكم كان يؤلمها عندما كان يقول لها بأنها غير مجبرة على البقاء معهما وتستطيع الذهاب في الوقت الذي تُريده أو تُقرره للبحث عن حياة أفضل فيها شيء من السعادة كان يقول: ما ذنبك أنتِ لتقاسي. لتُضحي بكل شيء من أجل لا شيء.

ولكن الأسوأ قد انتهى الآن. وها هو الآن أمامها ثانية. وبالرغم من كل المرارة والألم الذي يعتصر قلبها إلا أن هناك شعاعًا من أمل يبزغ من جديد

ولكن ذلك الشعاع ما لبث أن خبا ووأدت السعادة لحظة ولادتها. عندما أعلن الزوج بأنه خرج ليذهب بعيدًا...

- لقد قررتُ الذهاب إلى تل مكين.

- فكرة حسنة. قالت بسعادة: إنك تحتاج للخروج. وهل هناك أفضل من ذلك المكان الطاهر المقدّس لتُريح فيه نفسك وتغسل أحزانك. ما رأيك أن أذهب معك؟

أجاب بيأس: لا..

- لماذا؟ أجابت سلمى.

- لأنني لن أعود سأبقى هناك في دير المخلص. سأبقى هناك أستعطفه أن يعود ثانية ويعاود التطهير فهذا تله وهذه مدينته قد أصبحا الآن بؤرة لكل الشرور وملجأ للشياطين آن الآوان لمجئ المخلص ثانية.

صُعقت المرأة من كلام زوجها الذي يعني أنها ستفقده بشكل نهائي. فقد كان على الرغم من حزنه وعزلته متواجدًا معها. أمامها. يُقاسمها الفراش. تُحس به..

بوجوده وبلمسته وهذا ما كان يُعزّيها. كانا يبكيان سوية. وذلك الأمل الكامن في نفسها بأن الغد سيكون أفضل وأن القدر سيبسط لهما يد السعادة مرة أخرى كان يعزيها.

وستتركني وحيدة هنا؟ كيف يُمكنك أن تفعل ذلك؟

قال بأسى وحزن: كنتِ وحيدة وأنا هنا. وقد قلتُ لك مرارًا بأن تحاولي أن تجدي طريقًا آخر بعيدًا عنا وعن طريقنا الملئ بالأشواك والحصى.

- وقلتُ لك أن سعادتي مرتبطة بك ولن أقبل لها بديلًا.

- ولكن يجب أن تتغيري الآن.

- على العكس. فلن يتغيّر فيّ شيء.. سأبقى هنا أنتظرك في الصباح من كل يوم أن تعود إليّ كما كنت في السابق. وفي المساء سأضمك وأغفو على حلم أنك عُدت ثانيةً.

- إني مُشفق عليكِ أيتها المرأة البائسة.

- أشفق على نفسك واخرج من بؤسك ومن هذه الحالة المزرية التي لا تليق بالرجال يكفيك رثاءً للذات. وعندها سأنتظر منك العطف وسأقبل الشفقة منك أيضًا بالرغم من أنني لا أحتملها حتى من نفسي.

- أنا ذاهبٌ الآن. قال.

وبنظرة جافة متحجرة وقلب مفطور قالت: حسنًا اذهب إذا أردت. ولكنك يجب أن تتذكر بأن القوة والرجولة هي في المواجهة. في الصبر والإصرار وليست في الانعزال أو الفِرار.

سأبقى هنا لن أنتظرك لأنك لن تذهب فسأراك كل يوم وسأُكلّمك. وفي كل مساء سأستلقي قربك في السرير تضمني بيديك ثم أغفو على صوت أنفاسك.

- اذهب.

لم تُشاهده وهو يخطو باتجاه الباب ليفتحه ويختفي وراءه. لأن تلك الصخرة قد تفجرت مالئة عينيها بالدموع. ولما فتح الباب ثانية اهتزّ شيء ما في داخلها فمسحت دموعها فرحًا. لقد عاد..

****

دخل يرتدي بزة عسكرية يقطر حيوية وقوة وشباب، وضع حقيبته بهدوء وقال

- أين ذهب ذلك الرجل؟

- ذلك الرجل أبوك. أبوك الذي ذهب ولن يعود ثانيةً. ثم بدأت تشهق ببكاء شديد..

- كُفي عن البكاء أرجوك. فسوف يعود بأسرع مما تتخيلين. هذا الرجل وبالرغم من سني، عمره ما زال غير قادر على تحمل المسؤولية وكطفل صغير يحتاج الرعاية.

- لماذا لم تُعده؟ لأنك لا تريده أن يعود؟

أجاب حنظل بلا مبالاة: الأمر سيان عندي عاد أم لم يعد. أنتِ فقط مَن أُكنّ لها المشاعر وما عداكِ فكلهم أعدائي.

- أعداؤك؟

- نعم وسيأتي يومٌ وسترين ما سأفعل. والآن اهدئي ولا تخافي فسيعود. إنه يحتاج للخروج قليلًا.

لانت نبرة صوته ورقّت كلماته فقد تذكّر بأن هذه المرأة هي الكائن الوحيد الذي أحاطه بشيء من الرعاية والحب والاهتمام.

لا تعرف سلمى كيف دارت ذاكرتها واستقرّت بإلحاح على الفتاة التي قَدِمت معه ذات مرة.

. وماذا عن إيمان؟ ألست مهتمًا بها؟ ألم تكن مستعدة لتقديم كل شيء من أجلك؟

.لقد ماتت.. قال تلك الكلمة بحيادٍ كُلّي وكأنه يتحدث عن حدث عادي حصل مع أناسٍ لايعرفهم.

. ماتت؟! صاحت سلمى صيحة دهشة ممزوجة بالرعب. ما زالت المسكينة صغيرة.

. الموت لا يعرف عمرًا. فهذا أنا فقدتُ أمي وما زالتُ صغيرًا. وأختي ماتت ولم تتجاوز الثانية من عمرها. هناك قدر يجب أن يحدث. هناك قوى يجب أن تأخذ مكانها الطبيعي.

غامت الرؤية في عيني سلمى وسقطت ولكنه تلقاها قبل أن تصل الأرض.

قال في نفسه: يجب ألا أكون قد كلمتها عن هؤلاء الأشخاص. إني مشفق عليها. ولكن لا بأس فإن الحزن والألم ينتقي النفس وقد يكون طريقًا آخر للخلاص.

. أنا آسف أمي. وكان نادرًا ما يُناديها بأمي، لم أقصد أن أزعجكِ.

. أنت لم تفعل. الذكرى هي ما تجئ بإلحاح جالبة معها الأسى والحزن والألم، وكلما أغلقت في وجهها بابًا حتى تُطل عليّ من بابٍ آخر مستأذنة للدخول بكل لباقة وتهذيب، ثم تعمل سياطها فيّ إني آسف حقًا فأنا الذي فتحتُ لها الباب هذه المرة.

.لا بأس يا بني. فلقد اعتدتُ على ذلك. ولكن لم تقل لي كيف ماتت إيمان؟

. لا تهتمي للموضوع كثيرًا. أنتِ لم تريها سوى مرة واحدة.

.ومع ذلك فقد تركت فيّ أثرًا كبيرًا.

.لقد انتحرت.

كانت تلك الكلمة رصاصة أخرى تخترق القلب النازف من رصاصات سابقة، بعضها قديم لم يُشف بعد وبعضها الآخر حديث وما زالت جراحه تنز. تاركةً ورائهاظلال شاحبة لإنسان بائس.

لقد تذكرت كلمات الفتاة التي كانت تتفوه بها بمرحٍ طفولي، كانت تتحدث عن الموت وكأنه دمية تريد الحصول عليها واللهو بها. ولم يكن من وعدها بهذه الدمية، الموت، سوى هذا الجبار الذي يُمثّل الرأفة والحنان والحب والامتنان.

أنت قتلتها.. قالتها باكية وهي تضرب على صدره بيديها الاثنتين، ثم لتدفن رأسهابين ذراعيه شاهقة.

- أنت قتلتها. أنت قتلتهم جميعًا.

أجفل قليلا ثم أمسك نفسه عن الغضب. أمسكها بتؤدة وضمها إليه محاولًا تهدئتها لم تكن كلمات الموت تُثيره. ولا كل الاتهامات التي تُوجّه إليه بشكل مباشر أو غير مباشر تُحرّك فيه شيئًا غير إحساس القوة والغبطة. وقد كان يشعر أحيانًا بأن هناك قوى خفية تُسانده وتُمهّد له الطريق إلى مكان، ومكانة ما لم يُدرك كُنهها بعد..

تذكّر الترقية الأخيرة التي تلقّاها، وقد كان آخر من يظن أنه سيتلقاها فهناك كثير من الضباط الذين تتوافر فيهم المؤهلات للقيادة ومع ذلك وقع الاختيار عليه هو.

لم يستغرب الأمر كثيرًا فقد حدث له الكثير من الحوادث المتشابهة التي تؤكد وجود قوة ما، عناية ما، قدر ما يعينه. وقد أصبح الأمر جليًا واضحًا وتأكد من الأمر بشكل كامل.

كان يسمع أصواتًا تُناديه بأصوات وكلمات مبهمة، لم يكن يفهم شيئًا منها في البداية ولكنه كان يُطرب لسماعها وينتشي لها ولكنها بدأت تتوضح قليلًا قليلًا، وكان عقله يلتقط بضعها بفرح شامل.

ـ أنت الخليفة. أنت الكفء. أنت القوي. أنت.. أنت..

أنت السيد.

أصبح يراهم بوضوح ويسمعهم بوضوح وطربٍ أيضًا. صحيح أن المرة الأولى كانت مرعبة جدًا فقد هاله منظر القرنين الضخمين في أعلى الرأس وكأنهما قرني ثور. ثم ذلك الذيل الملتوي كأفعوان والذي يُشبه ذيل الأسد. وكان شيء

ما يُشبه الشعر يُغطّي كامل الجسم الذي ينتهي إلى قدمين تشبه حوافر الخنازير وكان هذا الشيء يحمل القط الأسود الذي كان يلهو به عندما كان صغيرًا.

كان الخوف كبيرًا جدًا في البداية. فلقد اعتقد أن هذا المخلوق المرعب هو ملاك الموت وقد جاء ليأخذه هو أيضًا كما أخذ أمه وأختيه.

كان كل شيء فيه مخيفًا منفّرًا، ما عدا عينيه الذئبيتين اللتين جذبتا عينيّ حنظل إليهما بقوة ونقلتا إليه السكينة والطمأنينة. كانتا تقولان أشياء كثيرة جدًا مثيرة ومغرية.

وكالسحر دبّت الطمأنينة والهدوء في نفسه. ثم بدأ ينقل عينيه ثانية وينظر مذهولًا إلى الإله الذي أمامه ليجد الجمال والكمال الذي فيه. كان اللقاء الأول صامتًا ولكن العيون قالت الكثير.

- وقع عليك الاختيار، أنت الكُفء، أنت المختار.

أنت أنا.

ثم غادره تاركًا القط الأسود يلهو بين قدميه.

كانت التجربة مثيرة جدًا وجلبت له الغبطة والانشراح بدل الغم والحزن. فقد خمّن مكانته المستقبلية، المهمة القادمة التي ستوكّل إليه. أو ربما كانت قد أُوكلت إليه وإلا فما معنى هذه الزيارة وتلك الكلمات؟

نعم لا بد أن يكون الأمر كذلك. وهذا يعني بأن أحدًا لن يقوى على الوقوف في وجهه أو ردعه عن تحقيق المستحيل.

لا مستحيل مع وجودهم وإرادتهم.

نظر إلى القط الأسود الذي يلهو بين قدميه. وللحظة ظنّ أنه رأى نفسه.

خوف ركع الناس عندما ظهر المخلص خارجًا من منزل الشيخ. هذا الأمر الذي أثار غضب مكين الشديد وحزنه. فأطلق صرخةً بثّت الهلع والرعب في نفوس الجميع..

- قفوا.. قفوا.

استجابوا بسرعة ودون تفكير. وبدأوا يصيحون المخلص. المخلص..

إذا كنتم ستسجدون لي وربما عبدتموني ما الفرق، ماذا فعلنا؟ وأين التغيير؟ ليس هذا ما جئتُ من أجله ولن أقبله. أنا واحدٌ منكم جئتُ لأخلصكم بقدر ما أستطيع. لا لأغير القشور والأسماء فقط ويبقى الجوهر واحد. اتباع أعمى وتقاليد تافهة.

انهضوا وأزيحوا الغمامة عن عيونكم. انظروا للبعيد، دعوا نظركم يحمل فكركم ويطير في المدى حاملًا معه فكرًا وقلبًا نظيفين من كل أدران وأوساخ الماضي.

انظروا إلى داخلكم وهناك سوف تجدون الإله الأكمل والأوحد الذي يجب أن يُعبد، هذا القلب بما يحمل من حب وعاطفة وعقل. هذا إلهكم.

هذا إلهي وهو الذي بعث بي إليكم لا لأخلصكم بل لتخلصوا أنفسكم سنبدأ التطهير. وسننظف الغابة بعد أن نُنظف أنفسنا عقلًا وقلبًا. ومن ثم سنبدأ عهدًا جديدًا ومختلفًا.

لم يفهم الناس كل ما قاله مكين ولكنهم كانوا منساقين عاطفيًا معه. علا صياحهم وهجموا على مكين وحملوه فوق أكتافهم وأخذوا يدورون به شوارع القرية وهم يرددون: المخلص المخلص.

ثم توجّهوا إلى أطراف القرية وفوق المرج قرب الشجرة الكبيرة المثمرة ركعوا له جميعًا.

صرخ فيهم ليقفوا ولكن أحدًا لم يسمع كلماته لأنهم قد ذابوا إيمانًا وخشوعًا. وكان على الشجرة أصوات خافتة.

قال الشيخ لمكين: رويدك. مهلًا عليهم، فلم يعتادوا ذلك بعد. يحتاجون للقليل من الوقت.

- يجب أن يتعودوا ويتغيروا. قال مكين

- ما كل ما يجب أن يكون هو كائن. أجاب الشيخ.

- أخاف أن يتعودوا على الوضع الجديد بشكل خاطئ.

الجنرال

كان الكثير من زملائه الضباط يُكنّون له الكره والضغينة والحسد ولكن أحدًا لم يتجاسرعلى البوح أو التعبير عما يحس به نحوه علانية أو أن يُحاول إلحاق الضرر به وخصوصًا بعد الحادثة التي تلت ترقيته الأخيرة. والتي اغتصبها من قائده فقد سيطر على القائد الغضب الشديد سيطرة تامة أفقده صوابه فهجم على حنظل شاهرًا مسدسه. وقد قرّر الخلاص منه. كان هائجًا جدًا ويتفوه بكلامٍ غير مفهوم.

لم يُحاول أحد الوقوف بوجهه أو تهدئته. فلقد كان الجميع يتمنون في قرارة أنفسهم أن يتخلص منه حتى لو دفع حياته ثمنًا لذلك. وحتى الضباط المقربين لحنظل تمنوا ذلك أيضًا لأنهم كانوا يخشونه كثيرًا.

كان حنظل يقف في الساحة العامة للقصر الملكي مع بعض زملائه وهم من أسوأ ضباط القصر وأكثرهم شرورًا وشذوذًا. وقد اندفعوا للدفاع عنه والوقوف في وجه الضابط الثائر المتشق سلاحه ولكن حنظل منعهم من التدخل وطلب منهم الابتعاد.

ولما أصرّوا أعاد كلامه بصيغة الأمر الذي لا مجال لعصيانه.

ابتعد الضباط قليلًا تاركين حنظل وحيدًا في مواجهة القائد المعزول الغاضب. كمصارع إسباني في مواجهة ثور ضخم هائج. فهل سيكون ببراعة المصارع أم أن الثور سيكون قادرًا على التغلب عليه؟

تمنى الكثير من الضباط المشاهدين أن تنتهي المبارة بفوز القائد المعزول. وكان الباقون قد قرروا في نفوسهم بأنهم إذا ما كان النصر للقائد فإنهم سوف يردونه أرضًا بقرار جماعي بإطلاق النار.

بقي حنظل هادئًا يُراقب عدوه المشوش العقل وقد اندفع حتى وصل إليه ووقف أمامه وبدأ يبرطم ويتكلم. قال الكثير جدًا.

ثم أطلق النار..

اندفع الجميع إلى حنظل الذي كان يبتسم ابتسامته الخبيثة ناظرًا إلى الثور المضرج بالدماء. نظر إلى الجثة نظرة ازدراء وقال: نظفوا المكان جيدًا.

ثم اختفى بين رفاقه المدهوشين وغادر الساحة.

لم يمنع الموت الضابط من التخلص من فعلته أو الفرار من نتائجها السيئة. فلقد صدر بحقه حكم يقضي بتجريده من رتبته وحقوقه كلها وإلصاق تهمة الخيانة والعصيان.

- لقد فقد كل شيء. قال الضباط.

وهكذا صارالضباط يهرعون إلى حنظل للمداهنة والتملّق، وإظهار الحب وكان يعرف بمجرد نظرة واحدة في عيني الضابط ما الدافع الذي قاده لمثل هذه الخطوة.

ولهذا وضع خطة للتخلص منهم، وبالتدريج. وها هو القدر نصيرًا ومؤيدًا مرة أخرى.

المخلص

هيا أيها الرجال آن وقت العمل. صرخ مكين ودخل إلى الغابة كأسد هصور ولحقت به جموع الناس وقد شكّلوا جيشًا لا يقهر مسلحًا بالإيمان والعزم والتصميم..

لم تستطع الغابة المقاومة لفترة طويلة. إذ انسحبت من مواقعها ومكانها كعرين لأولئك الذئاب.

طُهّرت الغابة وقد قام مكين بنوع من التنظيم فيها هيأ مساحات منها للزراعة والبناء.

وهكذا وعلى نفس المنوال ساروا حتى وصلوا إلى حدود التل، ولكن أحدًا لم يجرؤ على التقدم خطوة واحدة أخرى رغم كل محاولات المخلص..

ـ وصلنا إلى النهاية.

ـ بقي القليل فقط.

ـ هذه حدودنا نحن البشر. وما بعد ذلك فحكر على الآلهة وحدهم ومحظر على البشر.

قرر مكين الذهاب إلى هناك وحيدًا لإكمال العمل. ولكم كان متفاجئًا برفض الشيخ وإصراره على التوقف مما اضطره إلى التراجع عن القرار الذي اتخذه.

سأل مكين مستغربًا: لماذا يا شيخ؟ بقي القليل فقط.

- هذا يكفي. يكفي أرجوك. لقد أنجزت الكثير. تمّت المهمة.

كان هناك شيء ما يُخيف الشيخ إلى الدرجة التي جعلته لا يقبل بالمتابعة والوصول إلى التل.

قالت النبوءة: سيصل إلى التل ويكون قد هدّه الإعياء وقد استنفذت طاقته وقوته في الغابة وعند حدود التل تنتهي المهمة الموكل له بها، وهناك ينتهي أيضًا نفوذ الإله الجديد.

ستُعمّر الغابة وتزدهر حتى تندمج بالقرية في النهاية. لقد تم الأمر قال الشيخ لنفسه.

ثم خاطب الجمع قائلًا: انتهت مهمة الجميع، عودوا إلى دياركم. ثم التفت إلى مكين قال له: إلا أنت فلديك مهمة أخرى. مهمة كبيرة وهامة يجب أن تُنجزها.

نظر مكين مستغربًا من الشيخ الذي نهاه عن إكمال مهمته ثم يُخبره بأن عليه أن ينجز مهمة أخرى، فما هي هذه المهمة التي يُلمّح لها الشيخ؟

لن تقبل نزهة بغير ذلك كان جواب الشيخ. وورد أيضًا لن تقبل.. يجب أن تعود سالمًا وتتزوج ورد.

كانت تلك هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير "ورد".

- لماذا أيها الشيخ؟ دعني أُكمل عملي فقد بقي القليل فقط. دعنا نخضع التل ونتخلص من آلهته. وليكن تطهيرًا نهائيًا. ولكن كيف لي أن

أُفكر في ذلك الآن بعد أن أشعلت النار في أحشائي. لم يعد لي قوة أو رغبة في أي شيء،

لقد شبّت في داخلي نار لن يُطفئها سوى وصال ورد. أصبح كل ما فيّ يطلب العودة السريعة وقد تمنى أن تتحقق تلك الحكايات التي صاغوها ورووها عنه. بأن تنبت له أجنحة ليطير بها عائدًا إلى ورد.

فقد كل رغبة في اجتياح التل. حتى لو غيّر الشيخ رأيه. حتى لو طلب منه ذلك لما فعله الآن. ما كان ليذهب. فقد غيّرت الريح اتجاهها كليًا وبقوة العشق والشوق بدأت تسير مركبة إلى مينائه الآمن "ورد".

احتفلت القرية كلها بزواج المخلص وهذا هو الاسم الذي التصق به ولم يعد أحد يناديه مكين سوى الشيخ ونزهة.

لقد تحققت أمنيتي. قال سالم. ها هو المخلص في ثياب العرس. انظر ما أجمله وانظر إلى عروسه. لا بد أنها من نسل الآلهة أو من بنات الملائكة. قال سليم.

ماذا تعتقد سيحدث الآن. هل سيقعد المخلص عن العمل. يعود إلى مكين الراعي. إنسان عادي يرعى زوجةً وأطفالًا ويتخلى عن كل شيء آخر. لا وجود لقوة قادرة على إطفاء تلك الروح الثائرة. ربما ستخمد قليلًا لفترة من الزمن ولكنها ستعود للاستعارة من جديد أقوى وأعتى. هناك الكثير ليفعل. إنها استراحة المحارب.

انظر إليه كم يبدو سعيدًا! رقة وعذوبة وحنانًا خلف قوة وصلابة وعزم

لقد صدق من قال: إنه الإله أو ابن الإله..

كان الحفل في أوجه عندما ترك مكين الحفل حاملًا عروسه وطار بها فلقد تحققت النبوءة ونبتت له أجنحة. طار إلى التل المحظور.

وهناك اجتمعت الآلهة وسجدت لهما وهي تُهلل وتصيح..

المخلص.. المخلص.

إشارة

- لقد آن الآوان لخطوة سريعة حاسمة. قال ذو القرنين.

- أي نوع من الحركة؟ سأل حنظل.

- آن الآوان لتصبح السيد المطلق. أصبح لديك الكثير من المؤيدين والأتباع. تعرف البعض منهم وهناك آخرون لا تعرفهم في أماكن أخرى لا تعرفها، ولكنهم يعرفونك وينتظرونك بفارغ الصبر لتقودهم. شرارة صغيرة إشارة البداية وسوف يضرمون نارًا عظيمة ستلتهم كل شيء، وتهيئ لنظام جديد.

نظامنا الذي نعمل على إحلاله منذ أجيال لتغيير وجه التاريخ والكون والله ونرسم المستقبل الذي نريد.

- هل يعني أن أقوم بثورة؟ قال حنظل: كم أحب ذلك.

هيأنا لك الطريق كاملًا، مهّدناها، قمْ بقوة وسرعة تُخلّص من كل عدو أو مشتبه به ثم تسلق العرش.

أحس حنظل وكأن شيئًا يُشبه القرنين نبت في رأسه.

كانت الترقية التي تلقاها كقائد للحرس الملكي اشارة البدء بالعد العكسي.

اجتمع بزملائه وأتباعه. وخطب فيهم بكل وضوح وجرأة وحزم.

سأقوم بانقلاب على الملك. وسأرتقي العرش. من يُساندني سيكون صديقي وغير ذلك سيكون عدوي من لم يكن معي. لديكم الخيار بين هذين ولا خيار ثالث عندي.

كلنا معك هتف الجميع. عرفوا بأنه سينتصر ما دامت وراءه تلك القوة الخفية.

ولن يكون هناك مهرب من عقوبته. وهكذا بموافقتهم ومشاركتهم سيجنون فوائد مضاعفة أولها وأهمها التخلي عن عداوته التي تعني الموت المؤكد. وصداقته ثانيًا التي ستهبهم مكانة مميزة وفوائد جمة.

كان يعرف ما يدور في أذهانهم. ولكن ذلك لم يُزعجه إطلاقا بل على العكس، فهذا النموذج من الناس يسهل التخلص منه بنفس سهولة السيطرة عليه واستثماره واستغلاله..

- متى سنبدأ؟ سألت أصوات متفرقة.

- قريبًا. قريبًا جدًا.

- إذًا يجب أن نحتفل.

- لنحتفل.

استئناف الثورة

نظر مكين إلى البيوت التي نبتت في المساحات الخالية من الغابة وكانت تنبع من حدود التل ثم تخترق الغابة لتصب في القرية القديمة وتندمج بها.

عادت ذاكرته الى الغابة وذلك الامتداد الأخضر الذي كان موجه يتدافع ويندفع ليتكسر على صخور التل المقدس.

لقد طهّرت الغابة وأصبح الناس آمنين مطمئنين. وقد تقبّلوا الحال الجديد بإيمان جديد. ولكنه إيمان ساذج سطحي عابر بالرغم من كل ذلك الإحساس بعمقه ورسوخه.

إرادة تغيير كلي ومن الجذور. ولكن كيف سيتم ذلك والتل ما زال هناك رابضًا كالسبع. وما زالت الآلهة هناك أيضًا.

كانت مجرد نظرة للتل أو ذكره كافية للناس حتى ينسوا حالهم وتخر قلوبهم مرتعشة ساجدة قبل أجسادهم.

ماذا فعلنا؟ لا شيء يُذكر. فكّر مكين.

زرعنا البذور ورعيناها. عملنا بجد وانتظرنا بصبر حتى أثمر جهدنا وعندها انسحبنا تاركين للريح أن تحصده.

لا يختلف هذا التل عن التلال الكثيرة المتشابهة. عن تل أم البلابل الذي يقطنه الكهنة ذئاب آخرون مستبدون. يمنعون الناس من الوصول إلى التل حتى لا ينكشف السر الذي يُبقيهم أقوياء ويبقى الناس ضعفاء. فمن يصل هناك يتخلصون منه بلا شفقة ولا رحمة. وأما المرأة المسكينة التي عادت بعد

أن عانت من ممارساتهم الوحشية فقد وُصمت بالجنون حتى بات كلامها مديحًا لهم يأخذه الناس بعكس ما تقول.

كيف أنتِ الآن أيتها المرأة الطيبة التي لولاها لكنتُ الآن قد ذهبتُ ضحية اللا شيء،كيف يعاملك ذلك العاق بعد ما فعلتِ؟ هل انتقم منك بأمر آلهته؟

لا بُد أن أعود يومًا إلى هناك وأحضركِ إلينا.

أحس بذلك التحدي الذي كان يسكنه ففكّر في نفسه..

لا بل سأُنظف الغابة والتل هناك أيضًا. ولكن يجب أن ننتهي من أمر هذا التل أولًا.

سأُكلم الشيخ ثانيةً في هذا الأمر. يجب أن أذهب ويجب أن يباركني.

لماذا لم يقبل؟ لم يجد جوابًا على تساؤلاته.

لقد خفت. لم تكن تجرؤ على التوغل أكثر. قال له ابن المرأة.

هذا غير صحيح. لم أكن أريد أن أعصي أمر الشيخ.

بل صحيح. خفت من عدم العودة إلى فتاتك التي شغلت كل عالمك. لم تكن واثقًا من نصرك علينا. ولماذا تريد أن تكسر رجاء الشيخ وتذهب الآن؟

لقد كنت أريد عودة مظفّرة ونهائية ولكن الشيخ أبى. نعم أردت العودة إليها ولكن بعد إكمال كل شيء إلى النهاية. قلت علينا. إذًا أصبحت واحدًا منهم؟

إني واحد منهم منذ البداية وها أنا ذا آخذ صفة شرعية الآن فلقد اعترف أبي والكهنة الآخرون والآلهة بي. وها أنا ابن أبي ولسان الآلهة.

بل أنت ابن الشيطان ولسانه أيضًا.

فلتطلق ما شئت من الأحكام والصفات فذلك لن ينجيك منا ولن تفلت بفعلتك النكراء بالتخلص من إخوتنا.

ولولا تلك الساقطة لكنت الآن مجرد عبرة لمن يتجرأ علينا. حالفك الحظ حتى الآن وهذا يكفي. كن عاقلًا وتنعّم بما لديك. عما قريب سيموت الشيخ وستكون الوارث الشرعي والوحيد لمكان لا تنتمي إليه ولا ينتمي إليك. ولكن لا بأس. ولتكن هذه صفقتك الرابحة معنا، الغابة والقرية بما فيها ومن فيها لك. والتل بما فيه لنا ولنا وحدنا.

افعل ما شئت وأين شئت فقط ابقَ بعيدًا عنا. ومن جهتنا سنُساندك ونحميك.

- إنها حقًا صفقة رائعة رابحة. قال مكين.

- سأربح الكثير ولكني سأخسر نفسي. لم أفرّ من تل البلابل لأبحث عن ربح مادي كنتُ قادرًا على تحصيله هناك. لو قبلت بذلك لكنتُ أصبحتُ واحدًا منهم. وأنت تعرف أكثر من الجميع بأنهم كانوا سيفضلوني عليك. ولكن كان يجب عليّ أولًا أن أدفن قلبي وأقتل عقلي بيدي. وهذا ما لن يحدث أبدًا.

- إذًا فالحرب مستمرة؟ وستخسر في النهاية كل شيء.

- أُحذّرك من الاقتراب من التل. سيكون الثمن غاليًا هذه المرة.

وفي محاولة للتأثير على عاطفته قال: انظر حولك ما ذنب هذه المخلوقة الرائعة؟

لقد عدت إليها في المرة السابقة بلهفة وشوق. فلماذا تريد التخلي عنها الآن؟ وكصديق حكيم ناصح قال: لا يحق لك أن تفعل ذلك. حياتك ليست ملكك الآن. فهي ملك لها ولهذا الملاك الصغير الذي يلهو بجانبك.

- ابتعد أيها الشيطان وكفاك أن تلعب هذا الدور الزائف. كنتُ أصدقك في الماضي. أما الآن فلا.

- حسنًا سأبتعد الآن ولكنك ستجدني دائمًا بالقرب منك. إما عدوًا أو صديقًا.

- بل عدوًا مبينًا، سيكون هلاكه على يدي.
كانت ورد جالسة بجانبه ترقب تلك التبدلات والتشنجات التي تظهر على وجهه بين الحين والآخر وقد كست وجهه باحمرار شديد..
- ما الذي يشغلك حبيبي، أعاده الصوت الملائكي إلى الواقع.
ـ أنت، وهو. وأشار إلى طفل يشع بهاءً وجمالًا وبراءةً.
ـ إذًا فأنت تنوي أن تفعل شيئًا مًا. وإلا فليس هناك من مبررٍ لهذا القلق ما دمت ستبقى معنا.
- كيف يقول لها إنه لم يُنهِ مهمته بعد والجميع يرى حتى الشيخ مسعود أنه قد فعل أكثر من المطلوب. كيف سيقول أنه يفكر بالذهاب إلى التل وهذا قد يعني عدم عودته من هناك حيًا إن عاد. وترملها في بداية عمرها. وهذا يعني أيضًا حرمان هذا الصبي من حنان الأب وعطفه ورعايته.
ستقول له لماذا أنت؟ دع شخصًا آخر يُكمل ما بدأت. ستقول هذا الكلام وهي على قناعة تامة بأن ذلك الشخص غير موجود. فإذا كان هو ينظر إلى التل برهبة فكيف يمكن للآخرين أن يفعلوا شيئًا وهم يعافون مجرد الاقتراب منه.
دخل الشيخ مسعود متوكئًا على عصاه وأنقذه من موقف محرج. حبا الطفل باتجاه الشيخ باسمًا أخذه الشيخ بين يديه وقال: أرى أن هناك شيئًا ما يكدر الوجوه.
ـ لا شيء. قال غريب.
ـ إنه يفكر في تركنا. قالت ورد بجفاف.
ـ ماذا؟ إلى أين؟ ولماذا؟ سأل الشيخ مندهشًا.
اسألها. أجاب مكين بنفس الجفاف فهي تعرف الجواب.
ـ إني أحس بذلك، قويًا واضحًا وكأني أراه.

إنه إحساس الأنثى الذي غالبًا ما يكون صادقًا.
تعال يا أمير لنذهب إلى نزهة. ثم نهضت وحملت طفلها وخرجت من الغرفة وخوف دفين يسكن صدرها.
قال الشيخ: ما الذي حصل، هل قلت شيئًا عن السفر أو شيئًا ما مشابهًا؟
ـ لا ولكنها مصيبة فيما تقول. إنه إحساس الأنثى وخوفها من فقدان من تحب.
ـ إذًا هناك شيء ما يعتمل في صدرك؟ سأل الشيخ.
ـ إن عقلي لا يستريح. دائم الحركة والتخبط ولا أستطيع التوقف عن ذلك وهذا يؤرقني.
ـ التل. قالها الشيخ مشددًا حروف الكلمة.
ـ إنه التل. يجب أن أصل إليه. هناك أصوات تناديني أن أفعل. لا بد أن أفعل ذلك لم نصل النهاية بعد.
ـ وامرأتك وطفلك الصغير؟
ـ سيكونون بأمان تحت رعايتكم.
ولكن لم يصل إلى التل أحد حسب ما أعرف.
ولم يصل أحد من قبل إلى الغابة أيضًا. وانظر الآن إلى البيوت التي تغزوها. يجب أن ننزع الجهل والخوف من النفوس ولن نستطيع أن نفعل ذلك ما دام التل هناك برهبته وحرمته يجب أن نحاول الوصوا إلى هناك. لنرى ما يُمكن أن نفعل.
ـ المجهول مخيف جدًا وأنت لا تعرف ما تواجهه. قال الشيخ وقد ظهرت قسمات الخوف والتوجس.

ـ ذئاب أخرى وربما بأشكال أخرى. لستُ خائفًا. المجهول هو الذي يمتص عقلهم ويقتلهم. وسيضيع كل الجهد والعمل الذي قمنا به هباء ما لم يسقط التل وأظنك تُلاحظ بداية الردة.

أسقط في يد الشيخ فقد عرف أن الاستمرار في هذا النقاش هو بلا جدوى ولن يُغيّر مكين فكره عن الذهاب ولو بعد حين فقال له:

ـ قل لورد عما تريد أن تفعل. وأنا أعرف أنها ستتفهم في النهاية.

ـ ماذا؟ أقول لها إني ذاهب إلى المجهول، حاملًا بيدي تذكرة موتي. سأترك لك هذه المهمة فهي أصعب عليّ من وصول التل واجتياحه.

ـ إذًا لا تذهب.

ـ يجب أن أذهب.

ـ حسنًا ما دمت مصممًا على الذهاب فالأفضل أن تفعل ذلك بأسرع وقت لأنك في هذا التأخير تُعذّب نفسك، وتُعذّب الآخرين معك أيضًا. لا تظن أنني لم أكن أُلاحظ تلك النظرات الحائرة المستفزة نحو التل. وأنا أيضًا كنتُ أعرف بأنك ستفعلها يومًا ما.

وأشعر بالندم الشديد لعدم تركي لك لتفعلها سابقًا. ولكني كنتُ خائفًا جدًا عليك، فقد كنتُ منهكًا. استنفذت الغابة قوتك. ولم تكن مستعدًا لمعركة جديدة بعد.

- أنا نادم على ذلك.

ـ أما أنا فلستُ نادمًا وقد فعلت الصواب. ولكني الآن مستعد. هذا التل لا يُخيفني أبدًا.

ـ إذًا لنأمل ألا تطول الرحلة. قال الشيخ بحب.

انقلاب

نامت المدينة على همهمات الحرس الملكي الذي كان كخلية نحل في أوج نشاطها، كان حنظل يمشي كطاووس مختال في بزته العسكرية الرسمية كقائد للحرس الملكي وكان أعوانه وضباطه متحلقون حوله. يتناقلون الإشارات والهمسات وينتظرون الإشارة السحرية من حنظل وها قد أتت..

- انصرفوا وهيّئوا أنفسكم فقد آن وقت العمل.

- الليلة؟ سأل الضباط بلهفة.

عند الساعة الثانية عشرة تمامًا ستكون الضربة القاضية سنستولي على الحكم.

أنا سأتوجه الى القصر الملكي وأتخلص من الملك وأعوانه وأنتم ستستولون على كل الإدارات والمواقع الحساسة. كل في الموقع الذي حدد له سابقًا

هل هناك أسئلة؟ هل نحتاج إلى مراجعة الخطة؟

لا فقد حُفرت في عقلنا وذاكرتنا.

لا أريد أي نوع من الأخطاء. التزموا بالخطة وتقيّدوا بكل التعليمات وخاصة التوقيت الدقيق. لا نريد الكثير من الخسائر من جانبنا إلا إذا اضطررنا إلى ذلك فالدقة والحذر والالتزام بالتعليمات قد تُنهي المعركة نهائيًا بلا إصابة واحدة.

انصرف الضباط كلٌ إلى موقعه المحدد لينتظر ساعة الصفر. وذهب حنظل أيضًا إلى مكتبه والنيران والأفكار تمتزج فيه.

ألقى بجسمه على الكرسي الجلدي الفخم ووضع رجليه على المكتب. وهبّ بعيدًا جدًا إلى سماوات أخرى. إلى ممالك مختلفة وأينما ذهب يسجد له الجميع.

****

وقف متأهبًا عندما دخل ذو القرنين ولكن الثاني أشار له بالجلوس. ثم اقترب منه ووضع يده على رأسه وصار يربت شعره كما تفعل امرأة مع طفلها الصغير وكانت حرارة تلك اليد تصل إلى جسم حنظل الذي كان يرتجف من السعادة التي يعيش بها آن الآوان لحكمنا هذا هو الوقت المحدد للحدث العظيم. لقد أصبح كل شيء جاهزًا لقد هيأنا لك الدرب كاملًا. بضعة ساعات فقط وعندها ستكون الملك العظيم وسيرتفع اسم الهنا من جديد. سيعود إلى مكانه الطبيعي.

ولكن يجب ألا تنسى من أنت عندما تجلس على الكرسي. أنت الآن جزء منا وأما إذا ما انحرفت فستصبح عدونا وفي الطرف الآخر من الخندق. وستبدأ بخط طريق نهايتك. أظنك تُدرك هذا الكلام.

كيف لي أن أخذل أبي الذي رعاني وأعطاني قسمًا باسمه! سأعيد المجد اللامع، سأعيد مجد الأجداد إلى عهده السابق. وستعود إلى مكانك في التل ومكانتك كإله له وللتلال الأخرى.

أنا وأنت شيء واحد فأنت جزء مني ما دمت معي. قالها ذو القرنين بلهجة ما بين الترهيب والترغيب..

ثم قام وخرج من الباب دون أن يفتحه.

نظر حنظل إلى الساعة المعلقة إلى الجدار إنها تدق الحادية عشرة والنصف. بدأ العد العكسي بضع دقائق وسيكون قد تغير كل شيء. الوجوه وما تحت

الوجوه والآلهة أيضًا الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعون. خمس طرقات متتالية على الباب تفصل بينها فواصل زمنية كإشارة للدلالة على الطارق. تكررت الطرقات على نفس الإيقاع ووجد المكتب بالضباط..

كل شيء جاهز كل الوحدات مستعدة وسيبدؤون التحرّك عند إشارتنا عند ساعة الصفر هيا بنا إذًا تخلّصوا من الحاشية كلها. دعوا الملك لي أنا سأتخلص منه. وسيكون لقاؤنا جميعًا في غرفة العرش.

****

أفاق الملك على جلبة وضجيج المعارك والتي تجري في الخارج أمام المقصورة الملكية اندفع الباب وفتح دون طرق وظهر من خلفه حنظل محاطًا بضباط الحرس الملكي الهائجين..

ـ ما الأمر؟ قال الملك مندهشًا.. ماذا يحدث هنا أيها القائد؟

ـ أمر بسيط جدًا. قالها بلؤم: لقد انتهى عهدك.

وبابتسامة صفراء قال: هل ثار الشعب ضدي، كان يجب أن أعرف أن سياستي المتهاونة وإفساح مجال واسع للحرية سيؤديا إلى هكذا نتيجة. لم أستمع إلى نصائحكم وإلى أن الشعب لا يستحق هذه الحرية التي أعطيت له وسيسئ استخدامها..

ـ أنت مخطئ هذه المرة، فالشعب لم يثر ولن يثور لأنه لن يستطيع فعل ذلك. شعب ممزق تحكمه الأهواء.

والتفرقة بألف وجه غير قادر على الثورة فلا غاية تجمعه ولا هدف، بل ما أكثر ما يفرقه أطلق الملك زفرة ارتياح فهو يعرف بأن الشعب إذا اجتمع على هدف وثار من أجله فلن تردعه قوة أيًا كانت فلا قوة تقف في وجه الشعب.

ـ إذًا ما الذي يحدث؟ وأين أنتم؟

ـ الذي يحدث هو أنك رهن الاعتقال، فقد اختارني الجيش للقيام بالانقلاب وتسلم الحكم والسلطة. نحن الآن في الطرف الآخر من الخندق.
ـ كيف تريد أن تجلس على العرش وأنت لست ابن ملك؟ لن يرضى الشعب.
ـ أما إني لستُ ابن ملك فأنت مخطئ فأنا ابن ملك الملوك، وأما الشعب فسيرضى رغمًا عن أنفه وبقوة وسطوة الحذاء العسكري. انتهى كل عهدكم وسيبدأ عهدنا.
خذوه. أمسكه ضابطان وجراه خارجًا في ثياب النوم. أشار لهم بالتخلص منه.
سنبدأ التتويج غدًا ابقوا متأهبين فلربما حاولت بعض قطع الجيش التمرد أو العصيان بحجة الولاء للملك المخلوع.
والشعب؟ سأل أحد الضباط.
الشعب لا يُخيف يا سيدي فهو سيتقبل الأمر ببساطة شديدة قاذفًا الملك المخلوع بشتى الصفات السيئة والدنيئة وراكضًا لتأدية فروض الطاعة للملك الجديد، واعدًا نفسه بمستقبل أفضل إلى الغد.
كانت الغبطة والسعادة العظيمة للنصر السريع يحملان حنظل في بحور الرضى والحبور.
عاد إلى مقصورة الملك وأصر على قضاء ليلته هناك. وأمر أحد الضباط بإعداد بيان يتلى في الصباح معلنًا التغيير طالبًا الطاعة.
لم ينم حنظل تلك الليلة فقد بقي مستيقظًا يؤدي صلوات وطقوس غريبة تمجيدًا لإلهه الجديد، لأبيه كما كان يدعوه، وكان كلما نظر في المرآة ابتسم فقد لاحظ ظهور انتفاخين صغيرين على طرفي رأسه.
إنها البداية ولكنها بداية موفقة ورائعة.
أحسّ أن يدًا حنونة تربت على رأسه وسمع صوتًا يقول له إنك ولد جيد.

سقوط الآلهة

استيقظ مكين في منتصف الليل. هيأ ما يحتاجه للرحلة بكل هدوء وروية فهو لا يريد إيقاظ ورد التي ستمسكه عن الذهاب وتفشل خطته. وبقلبٍ مرتجف ودّعهم بقبلة قلبية وكانت دموع مشاغبة تتراقص في عينيه.

مشى مسرعًا وكان القمر بدرًا يُنير الدروب والساحات. وابتعد قدر المستطاع عن كل الأمكنة التي يُمكن أن يُصادف بها أحد ما يعرفه. يريد الوصول إلى الجزء المشجّر من الغابة.

كانت تصل إلى مسمعه أصوات تردد أغنية قديمة عن الشر الذي دحر. عن أصوات مرعبة للمهزومين.

استُبدلت بهسيس أوراق الأشجار تهدهد عصافير الجنة. وأصوات ضفادع تصدح برسائل الغرام

على ألحان جداول رقراقة وهواء منعش عليل كان كافيًا ليجعله يفترش الأرض ويبقى ساعات

هناك يستمتع بالاستماع إلى سمفونية الطبيعة الخالدة. لولا تلك الحركة الدائبة في نفسه المتوثبة وعقله تذكره بما ترك وراءه، وبما ينتظره أمامه.

كانت الشمس ما تزال غافية عندما وصل أطراف التل. جلس قليلًا ليرتاح. ثم قام ليدور حول التل ترافقه الشمس بوجهها الأحمر وهي تمسح عن عينيها آثار النوم.

دار حول التل باحثًا عن طريق ما يُمكنه من خلالها الولوج إلى الداخل. ولكنه لم يجد شيئًا أعاد الكرة فلا بد أن هناك منفذًا ما. بين هذه الصخور المرتفعة الوعرة، والأشجار الكثيفة

الباسطة التي تظلل غابة الشجيرات والأشواك والحشائش المتشابكة.

ماذا تخبئين وراءك أيتها الصخور الصلبة بمنظرك القاسي الصلب. أقساوة أم لين؟

مساكن الآلهة أم مساكن الذئاب؟ أم مسكن الخيال أم الموت؟

أحس بأن هناك أحدًا ما يُراقبه ولكنه لم يرَ أي شيء، يجب أن يكون هناك طريقًا ما وعليَّ أن أجده، لن أعود قبل أن أفعل ذلك.

كان يدور دورته الثانية عندما اكتشف فتحة صغيرة بين صخرتين اقتربتا من بعضهما بخجل وسترتا عورتيهما بلباسٍ أخضر.

اقترب منها فأدرك أنها كانت طريقًا في يومٍ ما. ولكن كثافة الأعشاب التي نبتت مجددًا والأشواك التي عادت للتشابك دلّت على أنه لم يُستخدم منذ وقت طويل. استل سكينة الكبيرة ثم بدأ بفتح الطريق ثانية. وقد اضطر أن يجثو على ركبتيه ليدخل بين الصخرتين. كان حذرًا

جدًا خوفًا من غدرٍ قد يأتي من عدوٍ مجهول في هذا المكان الضيق الخطر الذي لا يسمح بحرية الحركة.

أفضى الطريق إلى منطقة منبسطة مليئة بأزهار رائعة الجمال تطغى عليها شقائق النعمان بلونها الدموي الساحر.

وقف متأملًا اللون والمنظر الساحر. هذا اللون الثوري الصارخ علام يدل؟

أيدل على كثرة الضحايا التي سقطت هنا، على كثرة الدماء التي أريقت؟

أم إلى ذلك الحب الوحشي والرغبة في الوصول إلى الكمال؟

نظر حوله مستكشفًا وباحثًا عن شيء لا يعرفه، يراقبه. فقد سمع تلك الحركة المريبة ثانية ولم يستطع أن يرى شيئًا.
انزلق إلى داخل اللوحة الملونة الحية مرحًا فرحًا..
إنه مكان يليق بالآلهة.
نسي نفسه وراح يركض كطفل صغير فاتحًا ذراعيه للريح محاولًا الطيران فهذا المكان يوحيبالرغبة والقدرة.
وبعدها استلقى على الأرض اندمج بها وراح يسرح بنظره في السماء الصافية الزرقاءحاملًا معه فكره ومخيلته.
من خلق هذا كله؟ وهناك في البعيد وخلف هذا الامتداد اللا متناهي هل يوجد آلهة أيضًا؟
لا بد من وجود إله في مكان ما ولكنه بالتأكيد مختلف.
إذا كانت هذه البقعة الصغيرة الجميلة توحي بقدرة الآلهة وجمالها فكيف بذاك الامتداد الأزرق الشفاف.
يجب أن يكون هناك قوة ما تُحرّك كل هذا. ربما هي من تُحرّك الآلهة هنا وهناك وربما سرقت الآلهة شيئًا من القدرة من ذلك المجهول؟
ومن الممكن أن تكون هذه الآلهة التي ارتضيناها لا حول لها ولا قوة إلا من خلال ضعفنا نحن البشر واستسلامنا وتسليمنا لها. ولأولئك الأشرار الخبثاء الذين نصبوا أنفسهم خدمة
وكهنة لها. وربما لم تكن إلا شيئًا صنعوه بأنفسهم وارتكبوا الآثام وصاغوا القوانين باسمهم، يجب أن أصل إلى الجواب الشافي. يجب حل هذه المعضلة.
هذا التل موطن الآلهة هذا ما يُقال. أين هي هذه الآلهة؟ ولمَ لم تحرك ساكنًا حتى الآن

ربما هي غير موجودة؟
وقف وجال بنظره فوق كل شيء. كل شيء يدعو للذهول والإيمان..
يريد شيئًا ملموسًا، شيئًا يدل على وجود آخر ولم يجد سوى الجمال.
توغّل بين الأشجار الباسقة ثانية وهناك لا شيء أيضًا سوى تلك الحركة المريبة التي تسمع بين الحين والآخر موحية بوجود شيء ما. مراقبة من نوع ما ومن دون أي أثرعلى المراقب.
كان يخرج من حقل أزهار ليدخل آخر أكثر جمالًا وإبداعًا تتداخل فيه الألوان وتمتزج الألوان الصفراء والزرقاء والبيضاء مع تلك الشعلة الحمراء التي تعلو الغصن الأخضر لا شيء سوى الجمال والبهاء. ما أجملك أيتها الآلهة وما أحلاك! فلماذا يقترفون الآثام باسمك؟ هل تعرفين بذلك؟ ولم تصمتين؟
سمع مكين الحركة بشكل أقوى هذه المرة، فقد كانت قريبة جدًا منه. وعندما التفت وراءه رأى الفاعل. وكانا ذئبان يحدّقان بعيون وحشية فيه. وقد عرف منهما الذئب الذي هاجم نزهة.
عرفه من الآثار العميقة الظاهرة بين عيني الذئب التي تركتها عصاه.
وبالرغم من الحقد والرغبة الوحشية في الانتقام فقد شعر الذئب بالخوف والتردد، ولكنه استمدّ الشجاعة والجرأة من رؤية الذئب الثاني يهجم بشراسة على مكين.
مكين الذي اعتاد هذا النوع من المعارك وقد أصبحت لعبته المفضلة المحببة. اعتمد على السرعة والذكاء والمراوغة وإذا به يُردي الذئب المهاجم بضربة من سكينه أصابته في العنق إصابة قاتلة.
ووقف وجهًا لوجه مع الذئب الآخر الذي يعرفه جيدًا. ونظر إليه بنفس النظرة التي رآها على وجهه حين كان يُهاجم نزهة. وقال له:

اعتقدتُ أنك مت منذ ذلك الحين، هل تغيرت صفات الذئاب وأصبحت تُساعد بعضها وتحن وتشفق وتتآلف مع بعضها البعض في الوقت الذي أصبحنا فيه نحن البشر عكس ذلك؟

كان سالم على حق، كان عليّ أن أُجهز عليك عندها. إذًا أنتم حراس الغابة هناك في الغابة وهنا على التل ما أنتم؟ هل أنتم حراس الآلهة وكهنتها؟ أم أنكم الآلهة نفسها؟ فلم أرَ من آلهة سواكم.

قال الذئب باستسلام: دعنا نعقد اتفاقًا. هذا المكان لم تطأه قدم إنسان منذ زمن بعيد جدًا.

كن الإله الجديد. وسنكون حرسًا لك وخدمًا.

. سنكون. إذًا هناك غيرك؟

. أكثر مما تتصور. بالرغم من أن أشكالهم الخارجية مختلفة وتوحي بالإنسانية فهم يحملون

غير ذلك في الداخل. إنهم نسخة طبق الأصل عنا.

وأنا نفسي كنت إنسانًا يومًا ما في السابق. وهم أيضًا في أتم الاستعداد للتحول.

.لن أعقد أي اتفاق معكم. فهذه النهاية نهايتكم ونهاية آلهتكم شروركم معها.

. أنت مخطئ كثيرًا. لن يستطيع الناس الاستمرار بدوننا فهم يحتاجون إلى مجهول، قوة ما نيرا على رقابهم.

. هذا ادعاء وافتراء على الإنسان البسيط الطيب.

. بالرغم من قوتك وبأسك ومكانتك فإنك غير قادر على فهم هذه الغوغاء. فها أنت لا ترى منهم إلا الوجه الحسن. انظر عميقًا وسترى كم من القبح والشر يضمرون.

قد يتغيرون الآن. قد تُغيرهم وتُغيّر سلوكهم ولكنك غير قادر على تغيير دواخلهم. فما إن تموت حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه في السابق. وإذا لم تقبل بعبادتهم لك وأنت حي، فسيفعلونها وأنت ميت قاذفين الفكر والمنطق والعقل في مسارب النسيان.

كان الذئب يقترب بتؤدة من مكين الذي كان يُفكر في كلامه نافيًا أن يكون فيه شيء من الصحة.

وثب الذئب على مكين إذ اعتقد أن بإمكانه الغدر به والقضاء عليه، ولكن الآخر وقد تعلم درسه جيدًا، قام بمناورة سريعة وضربه على ظهره بعصاه ضربة قوية أعادت إلى ذاكرته ذكرى حدث مشابه. سمع الذئب صوت تكسر عظامه وصوت تكسر أحلامه وآماله أيضًا.

أخذ مكين الذئبين ورماهما بعيدًا في شرخ عميق في الجرف الصخري. ثم عاد إلى مرج الزهور حاملًا بعض الأخشاب.

التتويج

وصلت أصوات النفير الذي أطلق في الصباح إلى الشمس النائمة في خبائها وأيقظها..

نهضت منزعجة من هذا الإزعاج المتعمد، وصبت حرارة أشعتها الحارقة على رؤوس الجماهير المحتشدة أمام القصر الملكي منتظرين سماع البيان.

تقدّم أحد الضباط الذي وعده حنظل بأن يأخذ مكانه كرئيس للحرس الملكي وبدأ بقراءة البيان..

قام الجنرال حنظل القائد العام للحرس الملكي بانقلاب أطاح فيه بالملك بعد إثبات تورطه بمؤامرات وسياسات تضر بمصلحة البلد وسكانه ووضع في السجن وسيترك للشعب حرية اختيار العقوبة..

بدأ الناس بالتصفيق والصياح أشار الضابط للجماهير بالسكوت ثم أكمل: لقد تم الاتفاق على تعيين الجنرال حنظل خليفة للملك المخلوع فهو الأجدر والأنسب لهذا المنصب ويجب حضور جميع المواطنين إلى ساحة القصر الملكي لتأدية فروض الطاعة والولاء"والويل لمن تخلف" لم تتل هذه العبارة لأن حنظل قام بوضع إشارة عليها لحذفها.

وقد قال حين قام بذلك: لا يحتاج الشعب إلى التهديد، فهو مؤهّل لكل جديد يمني النفس بفوائد وأرباح.

****

استتب الأمن والحكم للملك الجديد بسرعة فلم يتجرأ أحد على التصريح بالرفض أو معاداته وقد قام حنظل باغتيال بعض الشخصيات المؤثرة من

زملائه الضباط وكل من يخشى جانبه بالرغم من موالاته تحسبًا واتقاءً لعصيان مستقبلي..

أعدوا الولائم وأطعموا الشعب واتركوا له الحرية في الشراب والجنس.

اعتلى حنظل المنصة وبدأ يخطب في الجموع المتزاحمة:

سنعيد المدينة إلى ما كانت عليه المدينة القديمة وستعود الغابة إلى عهدها السابق الأسطوري كغابة مقدسة فهي رمز الولاء للأجداد وآلهتهم. وسيصبح التل مركز القصر الملكي ومعبدًا للآلهة فقط. وستُزال كل المساكن هناك وسيكون التوسع العمراني في الاتجاه المعاكس.

أعيدوا تشجير الغابة حتى حدود المرج ولتكن الشجرة الكبيرة حدود الغابة المحظورة.

ضعوا حراسًا على الغابة ولتعتبر غابة مقدسة لا يجوز التوغل فيها بل إن مجرد الاقتراب إلى مسافة معينة منها كافية لإلحاق العقوبة بالمخالف.

- م-

العودة

ـ لماذا لم تمنعه من الذهاب، صاحت ورد باكية بحرقة..

ـ هذا قدره. لن يستطيع أحد أن يردعه عن الذهاب.

ـ لقد تركته يذهب إلى حتفه.

ـ ربما ذهب إلى نصره! قالها الشيخ ذلك ليخفف عن المرأة المنكوبة آملًا أن يصبح كلامه حقيقةواقعة.

ـ كان سيبقى لو أصررت عليه أن يفعل. قالت نزهة.

ـ سيبقى الآن. ولكنه سيذهب في وقت آخر. ولهذا رأيت بأن في ذهابه الآن ما دام لا بد أنه سيفعلها أمر أفضل. فما زال في مقدورنا العناية بورد والطفل..

صمت قليلًا ثم أضاف: حتى عودته..

أدركت ورد بأن الشيخ أضاف الكلمات الأخير ليُطمئنها ويُهدّئ من روعها وقالت له: إنك متفائل جدًا. وها قد مرّت ستة أشهر وليس أي دليل على حياته أو موته إلا هذا الصمت الذي يوحي بالموت والضياع.

****

كانت ورد تقضي معظم أمسياتها ساهرة تُراقب الطريق المفضية إلى التل منتظرة وكلها أمل بأن تراه عائدًا إليها مكللًا بالعشق والشوق.

وهكذا حتى تنهض الشمس من نومها في مكان ما وراء التل. فتسرّع ورد إليها وتسألها عن أميرها الذي خطف قلبها وذهب. ولكنها لا تحصل على جواب سوى الدموع وبعد أن علم سكان القرية باختفاء مكين، بدأوا كالعادة في صوغ حكاياهم عن اختفاء المخلص.

- لقد ترك زوجته وطفله وعاد إلى المجهول الذي أتى منه.

- لقد ابتلعه التل.

- لقد خطفته الآلهة انتقامًا لما فعله بغابتها وستعلقه على الشجرة الكبيرة كما فعل بحراسها.

- لقد ذهب إلى القرى الأخرى ليخلصها أيضًا.

****

وفي أحد الأيام لاحظ الناس أن شيئًا ما يُشبه البيت ينهض على التل عظيمًا شامخًا علاهم الخوف وسكن في أحشائهم وقلوبهم.

لقد شيّدت الآلهة معبدًا يطل على القرية لتذكرنا بوجودها الذي نسيناه لبرهة، وربما هي إشارة أو إنذار لنا لنُكفّر عما ارتكبناه من إنكار جحود لها.

يجب الذهاب إلى الشيخ لنستشيره في عمل ما وتقديم أضحية لإرضاء الآلهة الغاضبة..

كان الشيخ كعادته يحاول تهدئه الأمور ولكنه الآن لا يدري ما يقول فليس لديه أدنى فكرة عن المعبد الجديد ومن ورائه.

- ما رأيك يا شيخ، ما نوع الأضحية التي يجب أن نقدمها؟

- الخوف الذي في نفوسكم.

التفت الجميع إلى مصدر الصوت الذي هزهم بعنفٍ وقد عرفوه فتهللت وجوههم بالفرح والارتياح فقد جاء من يحمل أثقالهم.

لقد عدت سالمًا. قالها الشيخ والسرور يملأ قلبه وروحه.

- أنهيتُ المهمة وعدت. لا شيء تخافون منه بعد الآن.

أشار الجميع إلى التل: وما ذلك البناء المشيد هناك.

- إنه بيت لي بنيته في التل.

إذًا كل شيء على ما يرام.. قالها الشيخ للسكان المتجمعين في ساحة المنزل.

يمكنكم الاحتفال الآن وبدل تقديم الأضحية للمجهول قدموها لأنفسكم.

وهكذا غادروا وقد أصبحوا متأكدين وفي اعتقاد خالص بأن مكين المخلص هو الإله الجديد الذي تكلمت عنه نبوءة الشيخ.

يجب أن نُقدم الأضحية باسمه وعلى شرفه.

ولكنهم لم يتجرؤوا على قول ذلك علانية له أو حتى التلميح بذلك. لأنهم يعرفون جيدًا أنه يرفض هذه الفكرة رفضًا تامًا لتواضعه الشديد ورأفته بهم.

وخافوا من ذلك الرد القاسي والنظرات الذي كان سيمطرهم بها..

****

ظهرت ورد شاحبة هزيلة ولكنها ما تزال باهرة الجمال جدًا.

.اعتقدت أنك لن تعود إليّ ثانية. واعتقدت أن واحدة من بنات الآلهة سرقتك مني.

.ذهبتُ إلى هناك من أجلك وكنتُ أراكِ في كل شيء وفي كل مكان.

سرقتني إلهة، نعم وما زالت تحتفظ بي وأحتفظ بها في كل أحاسيسي ووجداني.

ضمها إليه بشوق جارف:

- لن نفترق بعد الآن أبدًا.

أجابته دموع فرحة من عينيها.

الشيطان

سار حنظل على رأس قوة باتجاه التل، دخل بيت مكين وكان هناك في الداخل رجلًا عجوزًا طويل اللحية والشعر أبيضهما يقرأ في مخطوطات قديمة ويتلوها بصوتٍ متضرع مرتجف، رفع العجوز رأسه ونظر نظرة فارغة لا مبالية إلى الملك ثم عاد إلى مخطوطاته.. صرخ به أحد الضباط ليقف وينحني للملك.

لم يعد هناك ملوك. مات الملك منذ زمن طويل..

سأله ضابط آخر هازئًا: ماذا تقرأ أيها الشيخ؟

أقرأ نهايتكم. رد الرجل بجدّية.

ـ هل تُصدق هذه الأساطير والخرافات؟

ـ إنكم تعيشونها الآن. ثم قرأ بصوت عالٍ "سيعود الشيطان بزي إنسان وشكله ليهدم ما بناه الإله المتعالي، وليخرب الأرض بعد أن كانت عامرة. سيعيث فسادًا فيها" وهذا ما يحدث الآن ثم أكمل

"وسيظهر المخلص مرة أخرى ليُطهّر الأرض ثانية" إذا بدأتم طريق نهايتكم.

ـ إذًا أنت مؤمن بإسطورة مكين؟ سأل أحد الضباط.

ـ كيف أكذبها وها أنا أرى الشيطان أمامي؟ أجاب الشيخ.

كان حنظل يراقب الشيخ ويستمع إليه بقرف ثم قال آمرًا: احرقوا هذه الصناديق، اهدموا المكان، احرقوا كل شيء. لا أريد أثرًا له.

قال أحد الضباط المهتمين بالتراث شارحًا: إنها ثروة تاريخية أثرية هامة.

ـ إنها لا شيء. قال حنظل بقرف: سنصنع تاريخًا آخر ونبدع آثارنا.

ـ هذه دلائل وإشارات نهايته، فكيف سيدعها؟ قال الشيخ.

ـ وهذا الرجل؟

- تصرفوا كما يحلو لكم أريد المكان نظيفًا.
خرج حنظل حانقًا..
قال أحد الضباط: أليس هذا العجوز هو والد الملك الجديد.
- نعم إنه هو. أكد ضابط آخر..
قرأ الشيخ: "إنما الشيطان يلد الشيطان"
- أعطنا هذه الأوراق أيها الشيخ واخرج، لقد سمعت الأوامر ولا بد من تنفيذها.
ـ لن أخرج سأبقى هنا.
ـ الأوامر هي إحراق كل شيء.
ـ احرقوني إذًا.
ـ لا نستطيع فلربما غضب الملك.
ـ بل سيغضب إذا تركتموني.
أخرجه الضباط إلى الخارج وأضرموا النار في البناء ووقفوا يراقبون النار وهي تلتهم كل شيء.. قال الضابط الذي تكلّم عن التاريخ وفي عينيه دمعة: أين الرجل؟
ـ ربما ذهب.. أجاب آخر.
وفي مكان آخر كان هناك طيف امرأة مستلقية على فراش وبجانبها عجوز بثياب بيضاء تشع نورًا..
قالت المرأة للعجوز: لقد تأخرتُ كثيرًا، أتعبني الانتظار.
وكطفلة صغيرة وضعت رأسها في حضن العجوز، ثم أغمضت عينيها وغطت في نوم عميق.
نهضت العجوز وحملت الطفلة وطارت بها إلى السماء.
عاد حنظل إلى القصر الملكي سعيدًا، نظر في المرآة فرأى قرنين قد نبتا على جانبي رأسه..

الأمل

لقد اختفى واحد من السكان في ظروف مريبة.. من المؤكد أنه قُتل.

قال شـــهود بإن ذئاب افترســـته عندما كان يرعى قطيعه على أطراف الغابة التي يقوم على حراستها جنود الملك الجديد.

وقد فرض على الحراس وضع أقنعة على شكل رأس ذئب أثناء قيامهم بمهام الحراســـة وهكـذا ويومًـا إثر يوم بـدأ القنـاع يلتصــق بوجوههم ويفترس إنسانيتهم رويدًا رويدًا حتى امتصّها.

وكان يسمع بين حينٍ وآخر أصوات خطوات قادمة من بعيد.

تمت

٢٠١١/٢/١



ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

Mobile: 01024541339